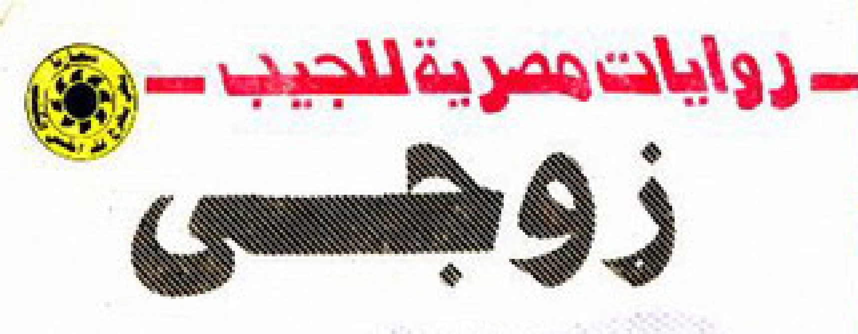




د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

زوجى

يا ربيع الحب هـل نبت الضـياء
في قلوب لم تعـد تبغى الحنـين
تبكى صـيفاً أشرقت فيـه السماء
دون قيظ أو غيـوم أو أنـين
وتعيش عمـراً فى خـريف فى بلاء
شـاخ فيـه النبض وانحفر الجبين
ثم تحيـا بعـد أن جاء الشـتاء
يحصـد الأعمـار يلتهم السنين

(نبيـل)

١ ـ النهـاية ..

سميحة حسين ..
اسمى (سميحة حسين) ..
هذا هـو أنا ..
اسم من تسعة حروف ، أحوز أنا منه خمسـة ، وأترك لاسم أبى أربعة ..
إنها ليست أنانية أن أحصل على الأكثر ..
إننى لم أختر اسمى ..
أبى فعـل ..
هو اختار لى اسمى ..
وحيـاتى ..
ومستقبلى ..
هو المسئول الأوّل عن كل شىء يخصنى ..
المسئول حتى عن تلك الدموع ، التى تتساقط على الورقة ، وتلوّث بعض الحروف ، وتطمسها ..
هو المسئول منذ البداية ..
منذ تزوّج أمى ..

لا تتعجبوا .. لا تظنوا أننى جاحدة ، متجنية ..
إننى على العكس ، واقعية ..
واقعية جداً ..
صدقونى ..
لقد عشت عمرى كله أفتقر إلى الحنان ..
إلى العطف ..
إلى الحب ..
ولكن هذا لم يجعلنى أبداً متهافتة على تلك المشاعر ، أو متلهفة على تلك العواطف ، كما تقول كتب الطب النفسى ، التى أدمنت الاطلاع عليها منذ حداثتى ، والتى صارت جزءاً من دراستى بعد ذلك ، عندما التحقت بكلية الآداب ، وحتى تخرجت منها ..
وكنت أظن أننى ، وعلى الرغم من كل تلك الظروف ، التى أحاطت بى منذ مولدى ، شخصية سوية ، وأننى لم ولن أتعرض أبداً للإصابة بأية عقد ، أو أزمات نفسية ..
ثم كشفت فجأة أننى واهمة ..

كشفت هذا بعد فوات الأوان ..
بعد أن أدركت أننى حقاً معقدة ..
صاحبة مجموعة مخيفة من العقد النفسية ..
وكان أبى - أيضاً - هو سببها ..
هو المسئول عنها ..
وربما كان أبوه هو المسئول عما أصابنى ..
أو جده ..
أو جد جده ..
أو هو المجتمع ..
أو التقاليد ..
لست أدرى ..
حقاً لم أعد أدرى ..
إننى أقص عليكم قصتى ، لتعاونونى على التوصل إلى الحقيقة .
إلى العقدة ..
أو إلى العلاج ..

أتعلمون أننى لم أحاول أبداً أن أستجدى رأى أى مخلوق آخر فى مشكلاتى الخاصة ..

إننى حتى أسخر من أولئك الضعفاء ، الذين يرسلون مشكلاتهم إلى تلك الأبواب ، التى تمتلئ بها الصحف ..

أبواب القلوب المعذبة ، والبائسة ، ومشاكل الجيل ، وما إلى ذلك ..

كنت أسخر منهم ، حتى وجدت نفسى بغتة واحدة منهم ..

فجأة .. شعرت برغبة عارمة فى أن أروى لكم قصتى كلها ..

بلا رتوش ..

بلا تجميل ..

بلا حذف ..

سأرويها لكم بكل تفاصيلها ..

معـــذرة ..

بكل ما يهمكم من تفاصيلها ..

فهناك تفاصيل لا يهمكم أن تعرفوها ..

ليس لأنها بالغة الخصوصية ، وإنما لأنها تافهة ..

إنها تفاصيل روتينية ، تحدث فى كل البيوت والمجتمعات ، مع اختلافات طفيفة من بيت إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ..

وسنكتفى معاً بالتفاصيل المهمة ..

تلك التفاصيل ، التى كوَّنت فى النهاية قصتى ..

بل مأســـاتى ..

مأساة أنثى كرهت أنوثتها ..

مأساة فتاة جنى عليها المجتمع ، وجنت هى عليه ..

هل بلغ بكم الفضول مبلغه ؟..

أأصبحتم ترغبون حقًّا فى معرفة قصتى ؟..

اسمعوها إذن ..

أقصد اقرءوها ..

اقرءوها من البداية ..

* * *

٢ - البـداية ..

تقول كتب علم النفس ، التى درستها ، إنه للوصول إلى نتائج خاصة بتحليل شخصية ما ، لابدَّ من الوصول إلى بداياتها أوَّلاً د.

وهذا صحيح ..

فحتى القتلة والسفاحون ، ستجد فى بداياتهم ما دفعهم إلى ذلك ..

كل مخلوق له دوافعه ..

وكل فعل له أسبابه ..

أو بمعنى أدق ، كل فعل هو فى الواقع رد فعل ..

لا تجعلوا منطق هذا يربككم ..

دعونا نناقشه فى هدوء ومنطقية ..

إن مولدنا نفسه هو رد فعل لعلاقة والدينا ..

ونمونا هو رد فعل لقواعد الطبيعة ..

وحتى نضجنا ، وشخصيتنا ، هى ردود أفعال لتربيتنا ومعاملاتنا ، وبيئتنا الاجتماعية ، وعشرات العوامل الأخرى ..

المهم أننا نحيا وسط دوامة من ردود الأفعال ..

ومأساتى ، التى ستتوصلون إليها بعد قليل ، هى رد فعل لمنشئى كله ..

وهذا يعود إلى البداية ..

إلى زواج أبى وأمى ..

لقد كان زواجاً تقليديًا ، تقدم فيه أبى لخطبة أمى ، دون أن يراها أو تراه ..

ووافق والدها - جدى - على الزواج ، دون حتى أن يهتمّ بسؤالها عن رأيها ، وكأن هذا أمراً هامشيًا ، لا يعنيه بالكثير أو القليل ..

وكانت رواية أمى لذلك تورثنى الحنق والسخط والغيظ دوماً ..

لقد تأكدت - عن طريق اطلاعى الحر - أنه من شروط الزواج الصحيح أن يتم سؤال العروس ، وأن توافق ..

ولكن هذا لم يحدث ، فى حالة زواج أبى وأمى ..

والعجيب أنها لم تعترض على ذلك ..

بل الأعجب أنها – على حد قولها – كانت تشعر بالفرح ..

كان الزواج فى حد ذاته هدفاً ، لكل أنثى فى عصرها ..

ولقد نالته ..

ومنذ أوَّل ليالى زواجها ، تحطمت فى قلبها صورة الزواج الوردية ..

لقد كشفت أنها قد تزوَّجت رجلاً فظّاً ، غليظ القول ، قاسى الفعل ..

ومنذ تلك الليلة ، انكسرت روحها المرحة فى أعماقها ..

وحتى اليوم ، اقتصرت مهمة أمى على خدمة ذلك الرجل الذى تزوَّجته ، وعلى إنجاب أكبر قدر من الأبناء له ..

وكان هو ، كمعظم أهل عصره ، يرغب فى شدة فى إنجاب ولد ، يرث ذكراه ، واسمه ، وثروته ..

وفى هذا الشأن ، فشل جبروته فشلاً ذريعاً ..

لقد أنجبنا نحن ، خمس فتيات جميلات ، دون أن يحظى بولد واحد ..

ولولا أن أمى قد أنهكها الحمل والولادة ..

ولولا أنه قد يئس أخيراً من نيل الولد ..

ولولا بقايا من الرحمة والآدمية فى أعماقه ، لكنا عشر ، أو ما يزيد ..

وكنت أنا أصغر بناته ..

ولقد نموت وسط جحيم صامت مستتر ..

كنت أرى أمى تبذل جُهدها ، وشبابها ، وحياتها ، فى سبيل راحتنا وسعادتنا ، ثم يأتى أبى من عمله ، فيضن عليها بكلمة ثناء ، أو بلمسة رقيقة ، أو حتى بابتسامة واحدة ، تخفّف عنها العناء ، وتمحو من نفسها شقاء اليوم ..

إننى لم أره أبداً يبتسم ..

منذ طفولتى ، وحتى الآن ، لم أرَ ابتسامة واحدة على شفتيه ..

لقد تصوَّرت فى طفولتى أن الرجال لا يبتسمون ،

لولا أننى كنت أرى خالى يبتسم ويداعبنا ، كلما أتى لزيارتنا ، فى فترات متباعدة ..

لقد كان أبى دوماً مقطب الجبين ، غليظ الأسلوب ، شديد اللهجة فى التخاطب ، عنيفاً ، شحيحاً ..

كان كتلة من كل ما كرهته فى حياتى ..

معـــذرة ..

قد يصدم مشاعركم أن تعترف واحدة مثلى بأنهـا تكره والدها ..

قد يؤلمكم أن أعترف بذلك ..

ولكنها الحقيقة ..

كيف لى أن أحبه ؟..

أتتصوَّرون أننى سأفعل ، لمجرَّد أنه أبى ؟..

خطأ أيها السادة ..

لو أنكم تتصوَّرون هذا ، فأنتم واهمون ، ومبالغون ، وتميلون إلى خداع أنفسكم ، تمسكاً بقواعد باهتة ..

لا يوجد شىء واحد فى العالم ، أو فى الكون كله ،

يجبرنى على حب أبى ، لمجرَّد أنه يحتل تلك المكانة ، التى لا شأن لى ، ولا يد لى فيها ..

حتى الله (سبحانه وتعـالى) ، لم يأمرنا بحب الوالدين ..

لقد أمرنا (سبحانه) بحسن معاملتهما ، وطاعتهما ، وعدم نهرهما ، ومصاحبتهما بالمعروف ، ولكنه لم يأمرنا (سبحانه) بحبهما ..

وفى هذا حكمة إلهية بالغة ..

فالحب أمر يأتى من أعماق القلب ، ومن المستحيل أن يفرضه أمر ما ، أما تلك العوامل الأخرى فهى اختيارية ، لا يضيرنا تنفيذها ، أو طاعتها ..

ولقد كان من العسير حقًّا أن أحب أبى ..

لا أحد كان يحبه ..

أمى كانت تخشاه ..

وكذلك أخواتى ..

وعلى الرغم من تفانى أمى فى خدمته ، كان يتفنَّن فى عقابها ، وتقريعها فى شدة ، لأى خطإ ، ولو تافه .

وكانت كل وسائله فى ذلك تثير غضبى وألمى ..
وكلما مضى بنا الزمن ، كنت أزداد بغضاً ، وكراهية له ..
ثم بدأت موجة الزواج ..
كانت شقيقتى الكبرى قد نضجت ، وبدأ العرسان يتوافدون لطلبها ، ومثلما تزوَّج هو ، تجاهل أبى رأيها تماماً ، وراح هو يستقبلهم ، ويمطرهم بالأسئلة السخيفة العنيفة ، ثم يطالبهم بما يفوق احتمال أى شاب عادى ، وكأنما يستنكر أن يمنح ابنته بلا مقابل ..
وكان من جرَّاء ذلك أن وافق أخيراً على زواجها ، من رجل يكبرها بعشرين عاماً ، ولكنه ثرى ..
كان الثراء هو كل ما يهمه ..
ليس ليضمن لنا حياة مرفهة ، كما قد تتصوَّرون ، ولكن ليضمن عدم التزامه بأية مصاريف ، كالأثاث والمفروشات ..
وتزوَّجت شقيقتى الكبرى ، دون حتى أن يؤخذ رأيها فى ذلك الزواج ..

يومها ثارت نفسى ثورة شديدة فى أعماق ..
ماذا يحدث ؟!..
إلى أى مصير نسير ؟!..
بأية نظرة ، وأية وسيلة يعاملنا أبى ؟!..
إننا لسنا مجرَّد جوارٍ ، يحق لأبى التحكُّم فى مصائرنا ، كما يحلو له ..
إننا بشر ..
بشر لنا حقوقنا ، التى منحنا إياها المجتمع والدين ..
ولسنا فى العصور الوسطى ..
من يصدق أن يحدث هذا ، فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وقبيل سنوات من القرن الحادى والعشرين ؟!..
من يصدِّق ؟..
يومها تم زفاف شقيقتى إلى زوجها ، وكانت هى تبتسم ، وكنت أنا أبكى ، وأتساءل : كيف تبتسم ؟..
كيف تستسلم لمصير كهذا ؟!..
يومها قضيت ليلتى كلها أبكى ..

أبكى مصير شقيقتى ..

أبكى مصيرى المنتظر ..

أبكى قـدر أمى ..

وقـدرى ..

وبتلك الواقعة، بدأت مأساة الزواج فى أسرتنا ..

لقد تزوَّجت شقيقتى الثانية من كهل ثرى ..

والثالثة من ابن أحد كبار تجار (الموسكى) ..

والرابعة من شقيق زوج الثالثة ..

وحان دورى ..

كنت – آنذاك – طالبة فى الثانوية العامة، انتهيت من امتحاناتى على التوّ، وجلست أنتظر النتيجة ..

والمصـير ..

وذات يوم، عاد أبى من عمله مقطّب الحاجبين كعادته، ورمقنى بنظرة صارمة، قبل أن يتجاهلنى، ويتجه إلى أمى، ويقول فى خشونة:

– سيأتى بعض القوم لزيارتنا اليوم، فاستعدى.

انكمشت فى مقعدها فى خوف ورهبة كعادتها،

وهى تسأله بصوت أقرب إلى الهمس:

– من هم؟

رمقها بنظرة قاسية صارمة، وكأنما يستنكر مجرَّد أن تلقى السؤال، فازداد انكماشها فى مقعدها، وهى تغمغم:

– أعنى، متى سيأتون؟

أشاح عنها بوجهه، وهو يقول فى صرامة:

– سيأتون مساءً.

ثم رمقنى بنظرة سريعة، قبل أن يستطرد فى لهجة من لا يقبل نقاشاً:

– ابنهم يطلب الزواج من (سميحة).

انتفض جسدى، من قمة رأسى، وحتى أخمص قدمىَّ ..

وصرخت أعماقى فى عناد:

– كلاً .. لن أكرِّر المأساة .. لن أتزوَّج .. لن أتزوَّج ..

وهنا بدأت مأساتى ..

مأساتى المريرة ..

* * *

٣ ـ عنـاد ..

لم تتجاوز صرختى قلبى ..
احتبست فيه حتى اليوم ..
كنت أرفض ما سيحدث ، وأبغضه تماماً ..
أرفض أن أتزوَّج بنفس الأسلوب السخيف ، الذى تزوَّجت به شقيقاتى الأربع .
أرفض أن أتخلى عن حريتى ..
أن أتحوَّل إلى مجرد جارية ..
سلعة ، يأتى شخص ما لاستعراضها ، ثم يبتسم ابتسامة عريضة ، عندما ترُوق له ، ويقول فى بساطة :
ـ سآخـذها ..
كلاَّ .. لن أكون كذلك ..
ولكن أنَّى لى أن أفعل ؟.
أنا أيضاً أخشى أبى ..
أخشاه فى شدة ..
أنا أيضاً لا أجرؤ على معارضته ..
بل لا أجرؤ حتى على مناقشته ..

واستسلمت ..
وأحنقنى أن فعلت ..
وقضيت يومى كله فى حجرتى أبكى ..
لقد حدث ما كنت أخشاه ..
سأتزوَّج بنفس الأسلوب ..
بنفس الوسيلة السخيفة ..
سأتبع نفس الخُطا ..
وبينما أبكى فى حرارة ، سمعت طرقات هادئة رقيقة على باب حجرتى ..
إنها طرقات أمى حتماً ..
ليس لأنها رقيقة ، ولكن لأن أبى لا يطرق الباب أبداً ..
إنه يقتحم الحجرة بغتة ، دون أن يهتم بمن داخلها ، أو بما يفعله ..
إنه يرى أن هذا حقه ..
أليس هو مالك كل شىء ؟..
أليس الوحيد الذى ينفق على المنزل ، وعلينا ؟!.

هذا منطقه حتماً ..

المهم أننى عرفت أن صاحبة الطرقات هى أمى ، فأسرعت أمسح دموعى ، وأنا أغمغم :

– نعم يا أماه .

دفعت الباب فى رفق ، ودلفت إلى حجرتى فى صمت ،وبخطوات هادئة متردّدة كعادتها ، وجلست على طرف فراشى ، وصمتت طويلاً، قبل أن أغمغم أنا :

– ماذا هناك يا أماه ؟

كنت وكأننى قد افتتحت الحديث ، فقد قالت فى سرعة :

– سيأتون اليوم لخطبتك .

ولمّا لم أحر جواباً ، راحت تتطلع إلى عينىَّ المحمرتين ، من شدة البكاء ، وقالت فى ألم وتعاطف :

– ألا يسعدك ذلك ؟

هتفت فى مرارة :

– وهل يُسعد الجارية أن وجدت مشترياً ؟

خُيِّل إلىَّ أن قلب أمى قد انفطر فى مرارة ، وهى تقول :

– جارية ؟! .. ومن قال إنك كذلك يا بنيتى العزيزة ؟.. إنك فتاة مكرّمة معزّزة ، يأتى رجل ليخطبك ، مثلما ..

قاطعتها فى حنق :

– مثلما حدث معك .. أليس كذلك ؟

قالت فى حيرة :

– بلى .. ومثلما حدث مع العشرات ، والمئات غيرى ، وغيرك .. إنها سنة الحياة يا بنيتى .

هتفت فى غضب ، وأنا ألوّح بيدى فى سخط :

– من قال إنها كذلك ؟.. من قال إن سنة الحياة تقتضى أن يأتى رجل إلى هنا ، دون أن أعرفه ، أو حتى أراه ، فيستعرض جمالى وجاذبيتى ، ثم يقرر ما إذا كان يريدنى أو لا ، دون أن أملك أنا نفس الحق ، فى قبوله أو رفضه ؟!.. من قال هذا ؟

غمغمت أمّى فى قلق :

— ولكنه شاب جيِّد يا بنيتى .. إنه يمتلك مكتباً خاصًّا للمحاسبة ، ودخل لا بأس به ، وهو وسيم ، ومهذَّب و .....

قاطعتها فى غضب :

— كل هذا لا يعنينى .

ارتفع حاجباها ، واتسعت عيناها فى ذعر ، وتطلَّعت إلى باب الحجرة فى خوف ، وكأنها تخشى أن يتسلل رفضى وغضبى إلى أبى ، فيقيم الدنيا ويقعدها ، ويتهمها بالفشل فى تربيتنا وتهذيبنا ، وينهال عليها باللوم والتقريع ..

والواقع أننى أيضاً خشيت ذلك ، حتى أننى خفضت صوتى فى شدة ، وأنا أستطرد فى خفوت :

— كل هذا يبدو لى أشبه بزهور تخفى فخًّا .

تطلعت إلىَّ فى إشفاق ، ثم اقتربت منِّى ، وهمست فى اهتمام :

— أهناك شخص آخر ؟

هتفت بها فى استنكار :

— كلاَّ بالطبع .

ولم يكن هناك بالفعل أى شخص آخر فى حياتى .. كنت أكره أن يكون فيها أى شخص ..

أى رجـل ..

كل الرجال كانوا فى نظرى صورة من أبى ..

كلهم كانوا هو ..

كلهم كرهتهم ، قبل أن أتعامل مع أحدهم ..

وفى مزيد من الحيرة ، غمغمت أمى :

— لماذا ترفضين إذن ؟

هتفت ساخطة :

— لأننى أرفض الأسلوب نفسه .

قالت فى دهشة :

— أى أسلوب ؟.. إنه شاب يتقدَّم للزواج منك ، وهو مناسب كزوج ، ولم يحاول اللجوء معك إلى أية وسائل ملتوية ، فما الذى يمنع أن .....؟

قاطعتها فى حِدَّة :

— عشرات الأسباب .

هتفت فى حيرة :

– أخبرينى بعضها يا بنيتى .. ربما أمكننى أن.....

قاطعتها هذه المرّة فى تحدٍّ :

– أن ماذا ؟

خفضت عينيها فى انكسار ، وغمغمت ، وقد أدركت ما أعنيه :

– أن أفهمك .

شعرت لحظتها بشفقة هائلة نحوها ، وبرغبة قوية فى أن ألقى نفسى بين ذراعيها ، وأنعم بدفء صدرها الحنون ..

ولكننى لم أفعل ..

لست أدرى فى الواقع لماذا ؟..

كنت أبدو كما لو أننى أرفض كل المفروض فحسب ..

كانت طاقة العناد فى داخلى كبركان ثائر ..

وكنت أعلم أننى لن أجرؤ على مخالفة أبى ..

لن أجرؤ أبداً ..

وفى خفوت ، وبنبرة عنيفة ، سألت أمى :

– وما المفروض أن أفعله ؟

تطلّعت إلىّ فى حَيْرة ، وكأننى أسألها عن أمر بديهى ، وغمغمت :

– أن تستعدى لذلك .

قلت فى حِدّة :

– كيف ؟

أجابتنى بمزيد من الحَيْرة :

– بأن تتزيّنى ، وتتجمّلى و .....

قاطعتها فى سخط :

– باختصار ، أن أغلف البضائع بورق أنيق لامع ، حتى تَرُوق للمشترى .

زفرت فى مرارة ، وهى تقول :

– إنك تعقّدين الأمر يا بنيتى .. ألست مثل شقيقاتك ؟

أجبتها فى عناد :

– إننى أختلف .

قالت وهى تتحسَّس شعرى فى حنان :
– ولكنهن سعيدات فى منازل الزوجية .
قلت فى حنق :
– بل مستسلمات .
ثم استدرت إليها ، مستطردة :
– مثلما فعلت أنت .
أشاحت بعينيها ، وهى تغمغم فى ألم :
– هكذا النساء .
أحنقنى جوابها ، الذى يحمل قدراً هائلاً من الاستسلام ، فقلت فى عناد وحزم :
– لن أفعل يا أمى ..
هتفت فى جزع :
– لماذا يا بنيتى ؟
قلت فى إصرار :
– لن أفعل ؛ لأننى أكره الغش .. لو أنه يرغب فى الزواج منى ، فليرنى كما أنا ، دون إضافات .
فتحت أمى فمها ، وكأنها تهم بقول شىء ما ، ثم لم

تلبث أن خفضت عينيها ، وغمغمت فى انكسار :
– كما يحلو لك يا بنيتى .
وابتسمت ابتسامة شاحبة ، قبل أن تستطرد :
– إنك جميلة كما أنت .
ثم انسحبت من حجرتى فى بطء وهدوء ، وأغلقت الباب خلفها فى حذر ، وكأنها تخشى أن يعلم أبى أنها قد قضت بعض الوقت معى ..
وتركتنى وحدى ..
والحق يقال .. لقد شعرت نحوها بشفقة كبيرة ، فى تلك اللحظات ..
ثم اتجهت إلى مرآتى ..
أأنا حقًّا جميلة ؟..
أأنا حقًّا جذَّابة ؟!..
لم يعد هذا يهم ..
لست من سيقرِّر ذلك ..
المشترى هو الذى سيقرِّره ..
ما على الجارية إلا أن تقف أمامه مستسلمة ..

هذه هى القواعد ..

ولكن لا ..

ستتغيَّر القواعد ، اعتباراً من هذه المرَّة ..

ما دام ذلك الزوج المنتظر قد وافق على ذلك الأسلوب السخيف ، وقبل أن يتزوَّج هكذا ، دون اعتبار لمقتضيات العصر ، وحضارة اليوم ، فليدفع الثمن إذن ..

ومن أعماق أقسمت فى عناد :

— سيدفع الثمن .. سيدفع مدى الحياة ..

وبهذا وضعت أوَّل لبنة فى صرح المأساة ..

* * *



٤ ـ الأسر ..

وصل المشترى فى تمام السابعة مساءً ..

وصل مع والديه ..

لم أستقبلهم بنفسى بالطبع ، كما تقتضى قواعد والدى ، ولكننى سمعت صوت أبى وأمى ، وهما يستقبلانهم ..

وفى حجرتى ، انتابتنى رغبة قوية فى تجاهل ذلك الخطيب ، وتعمد إذلاله ، إلا أننى — وبكل صراحة — خشيت رد فعل أبى ..

خشيته فى شدة ..

ولقد جلست فى حجرتى ، والغيظ يملأ نفسى ، وأقاوم دموعى فى قوة ، حتى لا أنهار باكية ، حتى سمعت طرقات أمى على باب حجرتى ، ورأيتها تدلف إليها باسمة الثغر ، متهللة الأسارير ، وفوجئت بها تحتضننى ، وتهتف فى سعادة :

— مبارك يا بنيتى .. لقد قرأ والدك الفاتحة ، مع

والد خطيبك ، ولقد طلب منّى أن أدعوك لتقديم الشراب لهم .

اتسعت عيناى فى ذهول واستنكار ..

قرأ الفاتحة ..

دون حتى أن أراه أو يرانى ..

أى رجل هذا ؟

أى مستهتر هو ؟..

ألهذا الحد بلغ بهم تجاهل نبل الزواج ؟!..

ألهذه الدرجة تجاهلوا رأيى جميعاً ؟!..

ولم أبك ..

لم أذرف دمعة واحدة ، على الرغم من استنكارى لما حدث ، وكراهيتى له ..

كنت أتوقّع ذلك ..

كنت أتوقع أى شىء ..

وفى آلية تامة ، أومأت برأسى إيجاباً ، وغادرت حجرتى إلى المطبخ ، حيث وجدت أن أمى قد أعدت

أكواب الشراب ، فحملتها فى استسلام ، واتجهت بها إلى حجرة الجلوس ..

ومن الواضح أن أمى قد أساءت فهم موقفى ، فأطلقت زغرودة قوية ، وتهلّلت أساريرها فى فرح ..

ولم أكد أدلف إلى حجرة الجلوس ، حتى هبّ الخطيب واقفاً ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، وأطل الحنان من عينى أمه ، على حين راح والده يطيل النظر إلىّ فى إمعان واهتمام ..

أبى وحده ظل جالساً ، جامد الملامح ، وكأنما الأمر لا يعنيه ..

ولقد بدا لى ذلك الخطيب مألوفاً ، على الرغم من أننى لم أذكر أبداً متى رأيته ، أو أين ..

ولقد مدّ يده يصافحنى فى لهفة ، ثم لم يلبث أن تنبه إلى أننى أحمل صينية أكواب الشراب ، فأعاد يده إلى جواره ، وتخضّب وجهه بحمرة خجل خفيفة ، وهو يبتسم ، مغمغماً :

— (وحيد صبحى) .. بكالوريوس تجارة .

غمغمت فى برود :
— تشرفنا .
تركته يتناول كوب الشراب ، واستدرت إلى
أمه ، التى هتفت فى سعادة :
— مبارك يا بنيتى .
أما والده ، فقد ابتسم فى هدوء ، وهو يقول :
— مُبارك .
وضعت الصينية فوق منضدة حجرة الجلوس ،
واتجهت نحو الباب، ولكن أبى استوقفنى ، وهو يقول
فى صرامة :
— إلى أين ؟
غمغمت دون أن ألتفت إليه :
— سأعود إلى حجرتى .
قال فى صرامة وخشونة :
— اجلسى إلى جوار خطيبك .
أحنقنى أسلوبه فى التحدُّث إلىَّ أمامهم ، إلا أننى
أطعته فى استسلام ، واتجهت إلى الأريكة ، التى يجلس

عليها (وحيد) ، وجلست صامتة ، على الطرف البعيد
منها ، وراحت والدة (وحيد) تتطلع إلىَّ بابتسامة
حانية ، وسعادة واضحة طول الوقت ، على حين قال
والده لوالدى ، وكأنهما يتحدثان وحدهما ، فى مكان
خالٍ :
— اعتقد أنه لا ضرورة لتعقيد الإجراءات ،
وإطالتها يا (حسين) بك ، فـ (وحيد) يمتلك شقة
أنيقة ، مؤثثة بأفخر الرياش ، وأحدث الأثاث ، وهو
مستعد لشراء الشبكة غداً ، وسيكون من الأفضل أن
تتم الزفاف يوم الخميس القادم .
أجابه أبى فى هدوء ، وقد اطمأن إلى أنه لن
يتحمَّل أية مصروفات :
— على بركة الله .
أحنقنى الأمر فى شدة هذه المرَّة ، حتى أننى لم
أستطع كبح جماح نفسى ، وأنا أندفع قائلة :
— ولماذا العجلة ؟!
التفت إلىَّ الجميع فى دهشة ..

والدى وحده عقد حاجبيه فى دهشة واستنكار وصرامة وغضب ..

وحده جعلنى أرتجف ، وأنكمش فى مقعدى ، مثلما تفعل أمى ، وأنا أغمغم فى خوف وتخاذل :

– أعنى لِمَ لا ننتظر حتى تظهر نتيجة الثانوية العامة ؟

قال أبى فى صوت صارم ، بدا لى أشبه بهدير شلال غاضب :

– وما الفارق ؟

ازددت انكماشاً فى مقعدى ، وأنا أغمغم :

– لا فارق يا أبى .. لا فارق .

تجاهلنى تماماً ، بعد هذه النقطة ، وراح يناقش حماى فى تفاصيل الزواج ، والشبكة ، وكأنه يعاقبنى على تدخلى فى أمر يخصنى .

وفى أعماق تولّد غضب هائل ..

غضب من أسلوبه ..

من حياتنا ..

من استسلامى ..

من خوفى ..

من نفسى ..

ودون أن تسقط من عينى دمعة واحدة ، بكيت ..

بكيت فى أعماق قلبى بحرارة ..

بكيت حتى ناح نبض قلبى ، وبات أشبه بالأنين ..

لقد انتهى الأمر ..

لقد وقعت فى الأسر ..

وبعد ستة أيام فحسب ، سيتم زفافى إلى رجل أجهله ..

رجل ارتضى أسلوب العصر الحجرى ، فى نهايات القرن العشرين ..

رجل ابتاعنى كجارية ، دون أن يبالى حتى بمعرفة رأيى ، ومشاعرى تجاهه ..

سأعيد تاريخ أمى ..

سأكرّر مأساتها ..

وفجأة .. صرخ الغضب والعناد فى أعماق ..

لن تتكرَّر المأساة ..

لن يعيد التاريخ المهزلة ..

أنا أختلف عن أمي ..

عصري يختلف عن عصرها ..

صحيح أنني أخشى أبي ..

أخشاه على نحو غريزي ، لا سبيل لمقاومته ، أو هزيمته ..

ولكنني لا أخشى ذلك ، الذي سيكون زَوجي ..

وسيدفع هو الثمن ..

سيدفع ثمن أخطاء كل الرجال ..

سيدفع ثمن عذابي ، وعذاب أمي ..

سيدفع الثمن ..

سيدفعه حتماً ..

* * *

٥ - معه ..

« يتشرَّف السيدان ، (حسين عبده) ، و (صبحي صفوت) ، بدعوة سيادتكم ؛ لحضور حفل زفاف كريمة الأوَّل على ابن الثاني » .

كان هذا هو نص الفقرة الأولى ، في دعوة زفافنا ..

واليوم أنا زوجة (وحيد) ..

زوجته ، ولست جاريته ..

هذا ما قرَّرته منذ أول أيام زفافنا ..

قرَّرت أن أحصل منه على كافة حقوقي ..

على حرِّيتي .. على كرامتي ..

على كل ما فقدته أمي ..

وشاءت المصادفة أن تظهر نتيجة الثانوية العامة ، صباح زفافنا ، وجاء الأهل والأقربون يهنئونني بالمناسبتين معاً ، فقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع جيد ، يؤهلني للالتحاق بأية كلية تروق لي ، بالنسبة لدراستي الأدبية ..

وكان أبي وأمي أول من جاء لتهنئتي ، مع والـد (وحيد) ووالدته ..
وكان (وحيد) سعيداً بحق ..
منذ تم زفافنا ، وهو يكاد يطير فرحاً ..
أما والدي ، فقد ظل متجهماً صارماً كعادته ، وهو يبلغني بأمر نجاحي ، على حين انهالت أمي على وجهي بالقبلات ، وهتف (وحيد) في مرح :
– يالهـا من مصادفـة سعيدة ! ! ألف مبارك يا (سميحة) .. يمكنك الآن الالتحاق بأية كلية .
فوجئت بأبي يقول في صرامة واستخفاف :
– ما هـذه السخافة ؟!.. إنها لن تلتحق بأية كلية بالطبع .. لقد صارت زوجة .
احتقن وجهي غضباً ، ولكنني لم أفه بحرف واحد ، وظللت صامتة ، محنقـة ، حتى انصرف الجميـع ، واقترب مني (وحيد) ، وهو يحمل على شفتيه ابتسامة كبيرة ، ولهفة عارمة ، مغمغماً :
– ألف مبارك يا (سميحة) .

انتفض جسدي في توتر ، عندما وضع كفيه على كتفيّ ، واستدرت إليه في حركة حادة ، أدهشته على نحو ملحوظ ، قبل أن أقول في خشونة :
– اسمع يا (وحيد) .
تطلّع إلى وجهي في حَيْرة ، وغمغم :
– ماذا هناك يا (سميحة) ؟
قلت في حِدّة :
– هل ستطيع أوامر أبي ؟
تفجرت في وجهه دهشة حقيقية ، وهو يهتف :
– أوامر ؟!
صحت في غضب :
– نعم .. فليكن معلوماً لديك ، أنني سأتم تعليمي ، وسألتحق بالكلية التي تروق لي ، وأنني لن أتنازل عن هذا الحق أبداً ، مهما حاولت ، ومهما فعلت .
ابتسم في حيرة ، وهو يقول :
– ومن قال إنني سأفعل شيئاً ؟!.. هذا حقك .
واصلت حديثي الغاضب ، قائلة :

– وسيعنى هذا أننى سأوزّع جهودى بينك وبين دراستى ، ولن أحتمل أن يأتى يوم ، تتهمنى فيه بالتقصير أو .....

قاطعنى فى هدوء :

– لن أفعل .. اطمئنى .

أثار استسلامه حيرتى ، وتصوّرتها محاولة معقدة للسيطرة علىّ ، وعلى مشاعرى ، أو أنها مجرّد مجاملة تقليدية ، من عريس إلى عروسه ، فى أول أيام زفافهما ، وراودتنى رغبة قوية فى إيلامه ، فقلت فى صرامة :

– ولن ننجب ، حتى أنتهى من دراستى .

حدّق فى وجهى بدهشة حقيقية هذه المرّة ، وبدا واضحاً أن ذلك المطلب الأخير قد أثار ضيقه بحقّ ، فهو لم ينبس ببنت شفة ، طيلة خمس دقائق كاملة ، قضاها كلها يتطلع إلى وجهى فى حيرة ، قبل أن ينهض من مقعده ، ويسير فى أرجاء الرّدهة بعض الوقت ، عاقداً كفيه خلف ظهره ، ثم يلتفت إلىّ ، ويسألنى فى لهجة بالغة الجدية :

– أدرست ذلك المطلب الأخير جيّداً ؟

أجبته فى عناد :

– أجل .. وأصرّ عليه أشد الإصرار .

مط شفتيه فى ضيق ، وهو يقول :

– سيعنى هذا أن ننتظر أربع سنوات على الأقل .

قلت فى حِدّة :

– ولِمَ لا ؟!.. أتشارك أبى رأيه ، فى عدم جدوى استكمال تعليمى .

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

– إلى حدّ ما .

استفزتنى عبارته فى شدة ، على الرغم من أنه قد نطقها فى لهجة مهذبة للغاية ، فهتفت فى غضب :

– فلتعلم إذن أن رأيكما هذا لا يعنينى فى كثير أو قليل ، وأننى سأكمل تعليمى ، سواء رضيتما أم أبيتما ، وأننى .....

استوقفنى بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

– كفى .

ثم عقد حاجبيه فى ضيق ، مستطرداً :

– لقد أدركت وجهه نظرك .

قلت فى حِدَّة :

– هذا أيضاً لا يعنينى .

ظهر الغضب على وجهه واضحاً ، وخيِّل إلىَّ لحظة أنه سينفجر غاضباً ، كما كان يفعل أبى ، إلا أنه لم يلبث أن سيطر على مشاعره ، وزفر فى قوة ، وهو يقول :

– حسناً يا (سميحة) .. فليكن .. لن يرُوق لى أن أجبرك على العكس .

واتجه نحو حجرتنا ، ثم توقف لحظة متردداً ، والتفت إلىَّ ، مستطرداً فى حزم عجيب :

– سنؤجِّل الإنجاب لأربع سنوات .. أربع سنوات فقط .

واختفى داخل الحجرة ، وأغلق بابها خلفه فى عنف ..

وبرقت عيناى فى زهو وظفر ..

وارتسمت على شفتىَّ ابتسامة ضخمة ..

لقد انتصرت فى هذه الجولة ..

لقد أجبرت زوجى على الخضوع لرأيى ..

لقد حققت ما عجزت عنه أمى ..

اليوم لن يعيد التاريخ نفسه ..

حتماً لن يفعل ..

لقد وضعت اليوم اللَّبنة الأولى فى طريق التحرُّر ..

التحرُّر من عبودية المرأة للرجل ..

لم أعد جارية ..

لقد صرت سيِّدة ..

ولن أتنازل عن موقعى الجديد هذا أبداً ..

أبـــداً ..

أبـــداً ..

أبـــداً ..

* * *

٦ ـ طريق الحرية ..

كان من الواضح أننى قد ربحت الجولة الأولى ، بكل المقاييس ..

لقد اعتبر (وحيد) رأيى قضية مسلّماً بها ، حتى أنه هو الذى تسلّم أوراقى من المدرسة الثانوية ، وهو الذى قدّمها إلى مكتب التنسيق ، بعد أن ملأتها أنا برغباتى ، دون أن أسمح له حتى بإبداء الرأى فيها ..

ولأول مرّة فى حياتى ، تنسمت رحيق الحرية ..

وصدّقونى .. إنه يبعث النشوة فى النفوس ..

يبعث نشوة عارمة ، تتدنّى أمامها كل المشاعر والأحاسيس ..

ولقد غرقت فى تلك النشوة حتى أذنىّ ..

كنت أتشوّق لها طيلة عمرى ..

أتلهف عليها ..

ولقد قرّرت أن أحافظ على تلك النشوة ، مهما كلفنى ذلك ..

قرّرت أن أبذل حياتى من أجلها ..

وفى الليلة التى تلقيت فيها بطاقة الترشيح ، التى تبلغنى بقبول أوراقى فى كلية الآداب ، ابتسم (وحيد) ابتسامة باهتة ، وربت على كتفى قائلاً :

ـ مبارك .

غمغمت بعبارة مبهمة ، وأنا أشعر بسعادة بالغة ، وأتطلع إليه فى تشف وظفر ..

لقد تصوَّرت طيلة عمرى ، أن السبب الرئيسى فى سيطرة أبى على أمى ، وإذلاله لها ، هو أنه يتفوّق عليها فى كل شىء ..

هو جامعى ، وهى لم تتم حتى دراستها الثانوية ..

هو يعمل ، وهى لا ..

هو ينفق عليها وعلينا ..

هو صاحب كل وسائل القوة والسيطرة ..

ولقد قرَّرت ألا أمنح زوجى تلك الوسائل ..

قرَّرت أن أنتزعها منه كلها ..

سأتم دراستى الجامعية ، بل وسأفوقه علماً ..

وسأعمل مثله ، ويكون لى مالى الخاص ..
سأصبح نداً له ..
بل سأسعى جاهدة للتفوّق عليه ..
سأهزمه فى كل مجال ..
وفى تلك الليلة خيّل إلىّ أن خوفه من ذلك ، هو سرّ ابتسامته الباهتة ، وأسعدنى ذلك للغاية ..
لقد أصبحت أنا مبعث خوف لرجل ..
ولقد أعاد لى هذا جزءاً كبيراً فى ثقتى بنفسى ، وحطّم الكثير من خوفى الغريزى من الرجال ..
فيما عدا والدى ..
ما زلت أخشاه وأبغضه إلى أقصى حد ..
وفى نفس الليلة ، أتى أبى وأمى لزيارتنا ..
وما زال أبى متعجرفاً فظّـاً ..
وما زالت أمى منكمشة مستسلمة .. مستكينة ..
وعندما علم والدى بالأمر ، مط شفتيه فى ازدراء ، وهو يقول لـ (وحيد) :
— يا لك من رجل !!.. كيف تسمح لزوجتك

باستكمال تعليمها ، ألا تعلم أن هذا سينتزع منك بعض حقوقك ؟.
ابتسم (وحيد) تلك الابتسامة الباهتة ، وهو يغمغم :
— لا بأس من أن أحتمل بعض الشيء يا عماه .
ثم التفت إلىّ ، مستطرداً :
— من أجل (سميحة) .
جعلتنى عبارته أشعر بالزهو ، على حين ابتسمت أمى له فى حنان ، وكأنها تعلن له عن امتنانها ، وعاد أبى يمطّ شفتيه ، قائلاً فى استهجان :
— يا لرجال اليوم !
ثم مال نحو (وحيد) ، مستطرداً فى حِدّة :
— أتريد رأيى الحقيقى فيكم ، يا رجال اليوم .. وبكل صراحة ؟
لم ينبس (وحيد) ببنت شفة ، على حين لاحظت أنا أن الدماء تتصاعد إلى وجنتَيْه فى بطء ، ووالدى يستطرد ، دون أن ينتظر جواباً ، وبخشونته وغلظته وغطرسته المعهودة :

– رأيى أنكم تفتقرون إلى الخشونة الحقيقية .. وبكل صراحة .. إنكم لم تعودوا بمثل رجولة جيلنا .

احتقن وجه (وحيد) ، وهو يغمغم :

– ليس إلى هذا الحدّ يا عماه .

لوّح والدى بذراعه ، وهو يهتف :

– بل أكثر من ذلك .. كيف تستسلم لرغبات زوجتك إلى هذا الحدّ .. لقد كان من المستحيل أن يحدث هذا فى زمنى أنا .

غمغم (وحيد) فى توتر :

– الزمن يختلف يا عماه .

هتف والدى فى انفعال :

– بالطبع .

ثم أدار عينيه إلى أمى بنظرة صارمة ، وكأنما يؤكّد لـ (وحيد) صدق قوله ، ومن العجيب أن والدتى قد انكمشت فى مقعدها ، وشحبت فى شدة ، على الرغم من أنها لم ترتكب ذنباً ، وراحت تغمغم فى ارتياع :

– بالطبع .. بالطبع .

رفع والدى أحد حاجبيه ، وكأنما راق له استسلامها وخوفها ، وعاد يلوح بذراعه ، قائلاً :

– ولكن هذا شأنك .

غمغم (وحيد) ، وقد احتقن وجهه فى شدة :

– هذا صحيح يا عماه .

لم أتدخّل فى الحوار لحظة واحدة ..

فقط جلست هادئة مبتسمة ..

كان ما يحدث دليلاً على أننى أسير قدماً ، فى طريق الحرية ..

لقد كان (وحيد) يبرر أمراً يرفضه ..

من أجلى ..

وعندما انصرف أبى وأمى ، بدا (وحيد) متجهماً ، حزيناً ، إلا أننى قد تعمّدت تجاهل ذلك تماماً ، حتى وأنا أسأله فى برود :

– أتحب تناول طعام العشاء الآن ؟

هزّ رأسه نفياً ، وهو يغمغم فى صوت حزين :

– كلاً .. ليس الآن .

قلت فى برود :

— لا بأس .. هذا شأنك .

ثم اتجهت إلى حجرة النوم فى هدوء ، فهتف بى :

— إلى أين ؟

قلت دون أن ألتفت إليه :

— سأنام .. فقد قرَّرت أن أذهب لدفع مصاريف بدء الدراسة غداً .

قال فى لهجة خافتة :

— ولِمَ العجلة ؟

قلت فى برود :

— إننى أفضل إنهاء الأمور فى سرعة .

تنهد فى يأس واضح ، وغمغم :

— لا بأس .. لا بأس ..

لم أنم ..

صحيح أننى أوَيت إلى الفراش ، ولكننى لم أنم ..

كانت نشوة الحرية توقظنى ..

وكانت سعادة الالتحاق بالجامعة تؤرقنى ..

كنت الوحيدة وسط شقيقاتى ، التى ستلتحق بالكلية .

كنت الوحيدة التى تحرَّرت ..

أما (وحيد) ، فقد ظل يقظاً ، يقطع رَدهة المنزل جيئة وذهاباً ، حتى هزم النوم أجفانى ، فاستسلمت له تماماً ..

وعندما استيقظت فى الصباح التالى لم أجده ..

كان قد انصرف إلى عمله ، وترك لى مبلغاً كافياً من المال ، لدفع المصروفات ..

وبلغت سعادتى ذروتها ، وأنا أرتدى ثيابى ، للذهاب إلى الكلية لأول مرَّة ..

كان المناخ الجامعى كله يبهرنى ، ويشدنى إليه فى لهفة ..

كنت أتلهف حقّاً للاندماج فيه ..

وفى حرص ، رحت أرتدى ثياباً بسيطة ، تشف عن حقيقة عمرى ، وعن سنواتى الثمان عشرة ..

حتى شعرى ، صففته على نحو طفولى ، وتركت من خلف رأسى خصلة طويلة ، أشبه بذيل الحصان ، وتركت وجهى كله بلا زينة ..

كنت أريد أن أشعر أننى فتاة عادية ..

فتاة مثل كل زميلاتى ..

وكنت أشعر — لسبب ما — بالخجل من كونى زوجة ..

كنت أشعر وكأن هذا يقفز بعمرى إلى الضعف ..

وعندما انتهيت ، وقفت أتطلع إلى وجهى وملابسى فى المرآة ، وأسعدنى أننى أبدو كطالبة صغيرة ، تخطو نحو عالمها الجامعى فى حذر ..

وفجأة .. خامرتنى رغبة عجيبة شاذة ..

رغبة قاومتها بعض الوقت فى تخاذل ، ثم لم ألبث أن استسلمت لها فى اقتناع ..

لقد خلعت من إصبعى (دبلة) الزواج ، وأخفيتها فى حقيبتى ..

ولم أكد أفعل ، حتى شعرت وكأننى قد تحرَّرت حقًّا .

وبكل الفرح والسعادة ، اتجهت إلى الكلية ..

ودفعت مصاريف بدء الدراسة ..

وشعرت بعدها بنشوة عارمة ..

نشوة المضى فى طريق الحرية ..

* * *

٧ — عالمى الجديد ..

كانت الحياة الجامعية عالماً جديداً بحق ..

لقد بدت ساحة الكلية كمعسكر ضخم ، امتلأ بالحيوية والبهجة والنشاط ، وتراصَّت فيه مجموعات من الطلاب ، تسترجع ذكريات العام الدراسى السابق ، وتتعارف فى بداية عام جامعى جديد ..

وبسرعة ، اندمجت مع مجموعة صغيرة ، تتكوَّن من اثنتين من زميلات الدراسة الثانوية ، وشقيق إحداهما ، وهتفت فى مرح ، وأنا أصافح الجميع :

— صباح الخير يا (كوثر) .. صباح الخير يا (نوال) .. كيف حال الجامعة ؟

ضحكت (نوال) ، وهى تقول :

— إنها تصيبنى بالرُّعب .

ثم أشارت إلى الشاب الواقف إلى جوارها ، مستطردة :

— شقيق (سامح) .

أومأت له برأسى ، فغمغم مبتسماً :

– تشرَّفنا ..

وسرعان ما انتقل بنا الحديث إلى موضوعات عامة متنوِّعة ، واندمجنا معاً ، وشعرت أننى قد صنعت مجتمعى الجديد ..

ذلك المجتمع الذى رافقنى طيلة أربع سنوات الدراسة ..

ومنذ بداية العام الدراسى ، كان من الضرورى أن أضع برنامجاً يوميًّا جديداً لحياتى الزوجية ..

وبكل صراحة ، كان علىَّ أن أنتزع نفسى كثيراً من حياتى الزوجية ..

كنت وكأننى أحاول أن أنسى أننى زوجة ..

لقد رفضت وبإصرار أن يوصلنى (وحيد) بسيارته إلى الكلية ، وعلى الرغم من استنكاره ، كنت أذهب إليها بالحافلة العامة ، مثل معظم طالبات دفعتى ..

وكان هذا يسعدنى للغاية ..

كان يُشعرنى أننى فتاة صغيرة ..

بنت رقيقة ..

طالبة جامعية عادية ..

وفى الكليـــة اندمجت فى عشرات النشـــاطات ، وأصبحت عضواً عاملاً ، فى معظم الجمعيات واللجان .. وفى جمعية الفنون ، ونادى الثقافة ، وعشيرة الجوالة ، واللجنة الاجتماعية وغيرها ..

ولم يلبث اسمى أن صار مرادفاً لمختلف أنواع النشاطات فى الجامعة ، مما أهلنى لترشيح نفسى فى اتحاد الطلاب ، والفوز بمنصب أمين اللجنة الاجتماعية بنجاح ساحق ..

وفى تلك الفترة من حياتى ، كدت أصاب بانفصام شخصية حقيقى ..

كنت فى الكلية (سميحة) أخرى ، لا تشبه من قريب أو بعيد (سميحة) الزوجة ..

وأعترف الآن أننى قد أهملت منزلى وزوجى حقًّا ..

كنت أذهب إلى الكلية فى الصباح ، قبل أن

يستيقظ (وحيد) من النوم ، وأكتفى بتناول شطيرتين فى (كافيتيريا) الكلية ، مع أصدقائى وصديقاتى ، وأعود من الكلية بعد موعد الغداء ، عندما يكون (وحيد) قد تناول غداءه ، واستعد للعودة إلى مكتبه .

وفى المساء كان يعود ليجدنى منهمكة فى استذكار دروسى ، أو فى إعداد وتنظيم برنامج طلابى جديد ..

ولقد كان (وحيد) يبدو ضجراً ملولاً بحق ، خاصة عندما كنت أتجاهل كل حقوقه لفترة طويلة من الزمن ، وكنت أنا فى كثير من الأحيان أتعمّد تجاهل ذلك ، وكأننى أنتقم منه ، وأؤكد لنفسى أننى لست مثل أمى ، التى أفنت عمرها فى خدمة والدى ، ثم لم تنل منه حتى كلمة ثناء ..

ومن العجيب أن (وحيد) لم يشكُ يوماً ، ولم يعترض

لقد اعتاد ، فى كثير من الأحيان ، تناول طعام الإفطار والغداء فى الخارج ، وقلما يتناول طعام العشاء ،

وحتى هذا الأخير ، كنت أتركه يعده لنفسه بنفسه ..

وكان هذا الأسلوب يسعدنى ..

كان يمنحنى شعوراً بالحرية ..

أو أننى قد استرحت له ، لما يحمله من تجاهل لمسئولياتى تجاه ذلك الرجل ، الذى أصبح زوجى ..

وذات يوم ، سألتنى زميلتى (نوال) ، ونحن نعد مشروعاً طلابيًّا اجتماعيًّا جديداً :

– أخبرينى يا (سميحة) ، ألا يغضب زوجك ، من انهماكك الشديد فى اتحاد الطلاب ؟. إنك تمنحيننا وقتاً ، يفوق ما يمكن أن تمنحنا إيّاه فتاة عادية .

قلت فى استنكار :

– وما شأنه هو ؟.. إنها حياتى .

أجابتنى فى دهشة :

– وهو زوجك .

قلت فى حِدّة :

ـ هذا لا يمنحه حقّ التّحكم فى حياتى .

غمغمت فى قلق :

ـ ولكنه يمنحه حق الحصول على جزء من هـذه الحيــاة ..

أشرت إلى صدرى ، قائلة فى حِدّة :

ـ بإرادتى فقط .

هزّت رأسها نفياً ، وهى تقول فى خفوت :

ـ بل على الرغم منها يا (سميحة) .

التفتت إليها فى استنكار واستهجان ، وهتفت فى غضب :

ـ ماذا تقولين يا (نوال) ؟

ابتسمت ، وهى تقول فى هدوء :

ـ إنه ليس قولى يا (سميحة) .. إنه قول الشرائع السماوية ، والقوانين الدنيوية .

صحت فى غضب :

ـ أية شرائع ؟. وأية قوانين ؟.. أتقصدين تلك التى سمحت لأبى بإذلال أمى طيلة عمرها ؟.. أم تلك التى حطمتها قبل الأوان ؟.. ألم تشاهدى أبى وأمى منذ زمن طويل ؟.. إن أبى يبدو وكأن عمره لم يزد طويلاً ، أما أمى ، فهى تبدو عجوزاً ، شابَ شعرها ، وتغضن وجهها ، على الرغم من أن أبى يفوقها سنًّا بعشرين عاماً أتعلمين لماذا ؟.. بسبب هذه الشرائع ، وتلك القوانين .

هتفت (نوال) فى جزَع :

ـ ربّاه !! إنك تلقين بنفسك فى هوّة مخيفة يا (سميحة) .. إن حديثك كله عبارة عن مغالطــات رهيبة .. الشرائع والقوانين ليست المسئولة عما حدث لأمك .. فكما أعطت للرجل حق السيطرة ، وطلبت من المرأة طـاعته ، أجبرته أيضاً على حسن معاشرتهـا ومعاملتها ، وعلى الإنفاق عليها عن سعة .. ولقد أمرت كل الشرائع بحسن رعاية النساء ، واستوصت بهن خيراً . والخطأ فى حالة والدتك يعود إلى عدم طاعة والدك للشرائع السماوية .. هنا فقط يكمن الخطأ .. فى

أنانية الرجل ، التى تدفعه إلى اختيار ما يرُوقه من تلك الشرائع ، والتمسك به ، فى نفس الوقت الذى يتجاهل فيه بقية الشرائع ، التى تحوى واجباته نحو زوجتـه ، فالشرائع السماوية كعناصر الهواء الذى نتنفسه ، إما أن نأخذها كلها مجتمعة ، أو نختنق .. لا يمكننا انتقاء ما يرُوقنا منهـا فحسب ، دون أن يصـاب جسـدنا بأمراض شتى .

قلت فى غضب :

— هُرَاء .. لقـد دفعت أمى ثمن تلك الفلسـفة العميقة من دمها .

أجابتنى فى إشفاق :

— كان السبب هو نحن ، لا الشرائع السماوية .. حذار يا (سميحة) .. حذار أن تدفعك رغبتك فى الانتقام إلى الكفر .

هتفت مستنكرة :

— انتقام ؟! .. ومن تحدَّث عن الانتقام ؟

قالت مشفقة :

— أساوبك مع زوجك ، وحديثك عنه .. كلها عبارة عن انتقام خَافٍ ، لم يذكره لسانك ، وإن شفَّت عنه كل خلية من خلاياك ..

قلت وقد غلبتنى كراهيتى :

— لابدَّ أن يدفع رجل ما الثمن .

قالت فى ألم :

— ولمـاذا زوجك يا (سميحة) ؟

صحت غاضبة :

— لأنه أمامى .. هو الوحيد الذى يمكننى معاقبته .

تطلَّعت إلىَّ فى حزن ، وقالت فى مرارة :

— حذار يا (سميحة) .. حذار أن تحطمى حياتك كلها ، فى سبيل رغبة لا مبرِّر لها فى الانتقام .

قلت فى حِدَّة وعناد :

— إنها حياتى أنا .

أومأت براسها موافقة ، وهى تغمغم فى حزن :

— بالطبع يا (سميحة) .. إنها حياتك أنت .

ثم استطردت فى خفوت :

– ولكن حذار .. حذار أن يقودك ذلك الطريق الشائك إلى الخيانة ..

صحت فى غضب :

– الخيانة ؟! .. أى هُرَاء هذا ؟

وعلى الرغم من استنكارى الشديد لذلك ، إلا أنها كانت على حقّ ..

لقد انزلقت دون أن أدرى ..

انزلقت إلى بئر الخيانة ..

خيانة زوجى ..

* * *



٨ – الخيانة ..

كان اسمه (علاء) .. (علاء فهمى) ..

طالب بالسنة النهائية (الليسانس) ..

ولقد بدأ تعارفنا على نحو عجيب ..

كنت أستعد لبدء المشروع السنوى ، لرعاية الطلاب المعوزين اجتماعيًّا ، عندما فوجئت بشاب فارع الطول ، وسيم الملامح ، يقتحم حجرة اللجنة الاجتماعية ، وهو يقول فى حِدَّة :

– من المسئول عن ذلك المشروع السخيف ؟

أغضبنى أسلوبه ، وأحنقتنى لهجته ، فقلت فى غضب :

– أنا المسئولة عن المشروع ، ولست أسمح لأى كائن من كان بأن يسخِّف عملاً أقـ ......

قاطعنى فى حِدَّة :

– من علمكَ فنَّ الإدارة ؟.. من علمك التعامل مع الجماهير ؟.. إنك تقيمين مشروعاً لرعاية الطلاب المعوزين ، وتحيطين ذلك بضجة كبرى ، وكأنك تبغين من خلفه الدعاية ، لا الفائدة لهم .

قلت فى تحدٍّ :

— ولمَ لا ؟.. أليست الدعاية جزءاً فى أى عمل ؟

قال فى صرامة :

— إلا هـــذا .

كان يتحدث فى مزيج من الحِدَّة والغضب . والصرامة والحزام ، مما استثار مشاعرى ، فعقدت ساعدىَّ أمام وسطى ، وأنا أقول فى برود :

— ولمَ لا أيها المتحذلق ؟

لوّح بذراعه فى غضب ، وهو يقول :

— هناك عشرات الأسباب .. أولها أن هؤلاء الطلاب المعوزين لهم كرامتهم ، وحياؤهم ، وسيمنعهم هذا من أن يعلنوا فقرهم ، وسط ذلك المهرجان ، الذى تقيمينه ، خاصة وأنك تطالبينهم بتقديم أسمائهم لزملاء لهم ، قد لا يعلمون حتى الآن أن هؤلاء المساكين يحتاجون إلى معاونة ماديَّة ، وبأسلوبك هذا تحرمينهم حقهم فى الحصول على المساعدة ، للحفاظ على ماء وجوههم .

كان على حقٍّ تماماً فى تلك النقطة ، حتى أننى شعرت ببعض الخجل فى أعماق ، وأرخيت ساعدى على نحو غريزى ، وأنا أغمغم :

— أنت على حقٍّ .

استطرد ، دون أن يبدو عليه أى شعور بالظفر ، لموافقتى على رأيه :

— وثانياً أنك تنفقين أموال اللجنة ، التى هى أموال الكلية والدولة ، فى صنع لافتات دعائية ، على حين ينبغى أن يستفيد الطابة وحدهم بذلك .

أومأت برأسى فى خجل مغمغمة :

— صدقت .

وأيضاً لم يبد عليه أى شعور بالظفر ، وهو يتابع فى حزم :

— هذا رأيى .

وقبل أن أنبس ببنت شفة ، كان قد استدار ، وغادر الحجرة فى عصبية واضحة ، جعلتنى أهتف :

— من هذا الفتى ؟

أجابتنى (نوال) ضاحكة :

– إنه (علاء) .. (علاء فهمى) .. من حزب المعارضة فى الكلية .

سألتها فى فضول :

– أهو شيوعى ؟

ضحكت قائلة :

– بل رأسمالىّ ، ومن كبار الرأسماليين أيضاً .

سألتها ، وقد تملّكنى الشغف :

– كيف يا (نوال) ؟

لاحظت فضولى الشديد ، فاعتدلت ، وهى تقول فى جدّية :

– (علاء فهمى) ابن (فهمى مختار) ملك المقاولات المعروف ، ولكنه شخصية اجتماعية للغاية ، ويميل إلى الدفاع عن الفقراء والمعوزين ، ولعل غضبته هذه تعود إلى روح الخير الشديدة فى أعماقه .

أدهشنى أن توجد شخصية كهذه فى عصرنا ، فغمغمت فى اهتمام :

– هكذا .

ثم استطردت فى صرامة :

– ولكنه على حق ، فلنرفع تلك اللافتات الدعائية ، وسنكتفى بلوحة واحدة أنيقة ، على باب حجرتنا ، وسيقوم موظفو رعاية الشباب بتسجيل الأسماء وجمع البيانات .. إنه على حقّ تماماً .

لاحظت فجأة أنها تتطلع إلىَّ فى دهشة وحَيْرة ، فسألتها فى دهشة مماثلة :

– ماذا بك ؟

ظلت صامتة ، تتطلّع إلى وجهى لحظات ، ثم غمغمت فى حَيْرة :

– بل ماذا بك أنت ؟

هتفت فى دهشة :

– أنا ؟! .. وماذا اختلف فىّ ؟

قالت فى لهجة أقرب إلى القلق :

– إنها أوّل مرّة تؤيدين فيها رجلاً .

أدهشنى قولها ، وغمغمت :

ـ أحقـًا ؟!..

صمتُّ لحظة، أتفكر فيما قالته، وشعرت بصورة (علاء)، ووجهه الوسيم يملآن عقلي، فغمغمت :

ـ ربما لأنه يختلف .

هتفت (نوال) فى قلق :

ـ حذار يا (سميحة) .

صحت بها فى صرامة :

ـ حذار أنت يا (نوال) .. إنك تتحدثين كما لو كنت امرأة خائنة بطبعى ، تنتظر الرجل المناسب فحسب .. قلت لك إنه مجرَّد زميل .

ومرَّة أخرى طافت صورته برأسى ، وأنا أستطرد :

ـ وهذا لا يمنع من أنه يختلف .

لست أدرى لماذا سيطر هذا الشعور على كيانى تماماً ، وأسر مشاعرى على هذا النحو ؟!..

لماذا كنت أرى دوماً أن (علاء) يختلف ؟!..

ألأنه أوَّل رجل يهزمنى بالحجة ، لا بالقوة ؟!..

ألأنه أوَّل شاب يجادلنى فيما أقول ، بكل ثقة وحزم ؟!..

إلى الآن لست أدرى لماذا ، ولكننى واثقة من أننى قد اهتممت كثيراً ، فى تلك الآونة ، بشخصية (علاء فهمى) هذا ..

والدليل هو أننى قد نفذت كل ما أشار به ..

وفى صباح اليوم التالى ، كنت أجلس فى حجرة اللجنة ، عندما فوجئت بـ (علاء) أمامى ، يتأملنى فى صمت ، وبعينين نادمتين ، فقلت فى دهشة وتوتر :

ـ صباح الخير يا أستاذ (علاء) .. أهناك ما يمكننى أن ..... ؟

قاطعنى بغتة :

ـ أنا أعتذر .

خُيِّل إلىَّ أننى قد أسأت الفهم ، وأنا أغمغم :

ـ ماذا ؟

قال فى حِدَّة :

ـ قلت إننى أعتذر .

تطلعت إلى ملامحه الوسيمة لحظة ، ثم وجـدت نفسى أبتسم ، وأنا أغمغم :

– لا بأس .. لقد كنت على حقّ .

قال فى عصبية :

– لست أعتذر ، لأننى لم أكن على حقّ ، ولكن للأسلوب الذى نقلت به رأيي .

لست أدرى لِمَ لمْ يغضبنى أسلوبه ؟.

لم لم يحنقنى ؟..

بل على العكس ، لقد بدا لى طريفاً ، وأنا أضحك قائلة :

– حسناً يا (علاء) .. لن يجعلنا هذا نختلف .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة ، وهو يغمغم :

– بلا شك .

تردّد لحظة ، بعد هذا القول ، فأشرت إلى المقعد المواجه إلىّ ، قائلة فى هدوء :

– يمكنك أن تجلس .

قال فى حياء :

– ألن يضايقك ذلك يا آنسة ....؟

صمتَتُّ ، وانتظرَ ، على نحو يوحى بأنه ينتظر معرفة اسمى ، على حين دفعت مخاطبته لى بلقب (آنسة) الدماء إلى وجهى خجلاً ، وأنا أغمغم :

– (سميحة) .. اسمى (سميحة) .

عادت ابتسامته تملأ وجهه ، وهو يغمغم :

– تشرّفنا يا آنسة (سميحة) .

مرّة أخرى أخجلنى أنه يخاطبنى بلقب (آنسة) ، ووجدت نفسى أخفى أصبعى بكفى بحركة غريزية ، على الرغم من أننى قـد اعتـدت خلـع الدبلة ، كلما حضرت إلى الكلية ، وارتداءها بعد عودتى ، وغمغمت :

– أمازلت غاضباً ؟

ضحك فى خجل ، وهو يقول :

– ليس بعـد .

وتردّد لحظة ، ثم أضاف :

– كنت أنشد الكمال فحسب .

قلت فى حماس :

– إنه هدفنا جميعاً .
تردّد لحظة أخرى ، ثم قال :
– أعتقد أننى أدين لكم بترضية خاصة .
ضحكت ، وأنا أقول :
– ليس فيما يخصنى شخصيًّا .
قال فى حزم :
– ربما ، ولكن فيما يخص لجنتك .
وفى هدوء ، أخرج من جيبه رزمة من الأوراق المالية ، وضعها أمامى ، فقلت فى دهشة :
– ما هـــذا ؟
أجابنى فى ارتباك :
– ألف جنيه .. تبرع لمشروع رعاية المعوزين .
قلت فى دهشة :
– ولماذا تدفعه لى أنا ؟
ازداد ارتباكه ، وهو يغمغم فى تلعثم :
– ألست .. ألست المسئولة عن ..... ؟
قاطعته ضاحكة :

– بلى .. ولكن هذا لا يشمل جمع التبرعات .. رعاية الشباب هى المسئولة .
توقفت لحظة ، ثم أردفت فى مرح :
– بحسب رأيك .
التقط المبلغ ، وأعاده إلى جيبه فى ارتباك ، وهو يغمغم :
– فهمت .
ثم رفع عينيه إلىّ ، وابتسم فى ارتباك، مستطرداً:
– دون أية رواسب .. أليس كذلك ؟
هتفت فى حسم :
– بالطبـــع .
اتسعت ابتسامته فى ارتياح ، وهو يقول :
– شكراً لك يا آنسة (سميحة) .. شكراً لك .
ومدّ يده ليصافحنى ..
وصافحنى ..

ولحظتها ، ودون أن أدرى ، وقعت فى البئر ..
بئر الخيانة العميقة ..
لقد شعرت بانجذاب قوى تجاه (علاء) ..
انجذاب جعلنى أفكر فيه طيلة الوقت ..
حتى بعد أن وصلت إلى منزلى ..
لقد نجح فى احتواء مشاعرى كلها طيلة الوقت ..
وفى منزلى ، جلست فى مقعد وثير ، ورحت أسترجع تفاصيل كل لحظة معه ..
كل كلمـــة .
كل حـــرف ..
كل حـــركة ..
كل خلجـــة ..
كنت أسترجع ذلك فى تلـذُّذ ونشوة ، حتى فوجئت بصوت يقول :
— أين تسبحين ؟
انتفضت فى مقعـــدى فى فزع ، وقـــد باغتنى الصوت بالفعل ، وهتفت فى حَنَق شديد :

— (وحيد) .. لا تفعل هذا معى مرَّة أخرى .
عقد (وحيد) حاجبيه ، وهو يقول :
— أفعل ماذا ؟
قلت فى عصبية :
— لا تفاجئنى هكذا .
هتف فى دهشة :
— أفاجئك ؟! .. لقد هتفت أناديك ثلاث مرات ، وعندما بدوت وكأنك فى عالم آخر ، اقتربت منك ، وقلت ما قلت .
صحت فى غضب :
— ما كان ينبغى أن تباغتنى هكذا .
حاول أن يبتسم فى مرح مصطنع ، وهو يقول :
— لا بأس يا (سميحة) .. لن أفعل ، ولن .....
بتر عبارته بغتة ، وهو يحدِّق فى يدى فى دهشة ، فصمت فى حِدَّة :
— ماذا هناك ؟

رفع عينيه إلى وجهى فى جزع ، وهو يهتف :

– دبلة زواجنا يا (سميحة) !. أين دبلة الزواج ؟

لحظتها أصابنى الذعر حقًا ..

لقد كشف (وحيد) لُعبتى ..

وكشف خيانتى ..

* * *



٩ – الفراق ..

لست أدرى حتى اليوم ، كيف مرَّ ذلك الموقف ..

لست أدرى كيف تجاوز (وحيد) هذا ، وكيف أمكننى إقناعه بأن الدبلة قد آلمت إصبعى ، فخلعتها ، ووضعتها فى حقيبتى مؤقتاً ؟..

لست أدرى حقًا كيف انتهى الأمر ؟..

لقد كدت أنهار تماماً ، عندما كشفت أننى قد نسيت – فى غمرة انشغالى بـ (علاء) – أن أرتدى دبلة الزواج ، كعادتى عند عودتى إلى المنزل ..

خيِّل إلىَّ أن ذلك اعتراف طبيعى منِّى ، بأن عقلى كان يخُونُ زوجى مع شاب آخر ..

بأننى قد سقطت فى بئر خيانة ..

وكمحاولة لاسترضاء (وحيد) ، ودفعه إلى نسيان ذلك الأمر ، رحت أعامله فى ود كامل ، وبمرح شديد ، وخيِّل إلىَّ أنه قد نسى تماماً بعدها ، إلا أننى لم أكد أستيقظ ، فى الصباح التالى ، حتى بدا لى وكأن

(وحيد) قد ازداد غضباً وشكـّا ، فقد كان يجلس على طرف الفراش متجهماً ، محنقاً ، حزيناً ، يتطلـّع إلى وجهي في مرارة ، فنهضت أسأله في قلق :

– ماذا هناك ؟

لم يُجِبْ ، وراح يتطلع إلى وجهي في مرارة ، فكرَّرت سؤالي في توتر :

– ماذا هناك يا (وحيد) ؟

زفر في عمق ، وخيـّل إليَّ أن دمعة تترقرق في عينيه ، قبل أن يشيح بهما قائلاً :

– لا شيء يا (سميحة) .. لا شيء .

قالها ونهض يرتدي ملابسه في صمت ، ثم غادر المنزل ، دون أن يتبادل معي كلمة واحدة ، حتى أن هذا قد أقلقني في شدة ، فرحت أرتدي ثيابي في قلق ، وذهبت إلى الكلية متوترة ، ولم أكد أصل ، حتى وجدت (علاء) في انتظاري ، وهو يقول في لهفة :

– صباح الخير يا آنسة (سميحة) .. كيف حالك ؟

شعرت بسعادة شديدة لرؤيته ، وهتفت :

– في خير حال يا (علاء) .. شكراً لك .. كيف حالك أنت ؟

أجابني في حنان :

– رائع .

ثم تردد لحظة ، واستطرد في لهفة :

– أين تتناولين غذاءك ؟

أجبته في لهفة مماثلة :

– في (كافيتيريا) الكلية .

ابتسم في خجل ، وهو يقول :

– أتتناولينه وحدك ؟

قلت في حياء :

– ليس دائماً .

أسرع يقول في لهفة :

– ما رأيك أن نتناوله معاً اليوم ؟

اختلج قلبي في سعادة ، وقلت :

– لا بأس .

اتسعت ابتسامته في فرح ، وهو يهتف :

— سآتى لاصطحابك .

قلت مبتسمة فى خجل :

— سأنتظر .

تهللت أساريره ، ولوَّح بيده فى سعادة ، واندفع يغادر المكان ، محاذراً أن يرتطم بـ (نوال) ، التى وقفت على باب حجرة اللجنة الاجتماعية ، تحدّق فى وجهى بدهشة ، جعلتنى أهتف بها فى عصبية :

— حسناً .. ماذا هناك ؟

أجابتنى فى استنكار :

— (سميحة) !!.. ألا تدرين ما تفعلين ؟

صحت فى غضب :

— وماذا أفعل ؟.. إننى أتحدّث مع زميل جامعى و .....

قاطعتنى فى حِدّة :

— لا تخدعى نفسك يا (سميحة) .. إنك لم ترى نفسك ، وأنت تتحدثين معه .. لقد كنت هائمة .. هائمة كعاشقة صحراء .. كان ينبغى أن .....

قاطعتها أنا هذه المرَّة :

— لا ترسمى قصصاً فى عقلك ، وتسعين إلى إقناعى بها .. إن علاقتى بـ (علاء) بالنسبة إلىَّ ليست سوى علاقة زميل وزميلة .

صاحت فى غضب :

— اشرحى هذا لزوجك .

انتزعنى ذكر زوجى من عنادى ، فشحب وجهى ، وأنا أقول :

— وما شأن زوجى بهذا ؟

هتفت فى استهجان :

— ما شأنه ؟!.. إنك تخونينه يا (سميحة) ، ألا تدركين هذا ؟

صحت فى توتُّر :

— لا تبالغى .

هتفت فى إصرار :

— بل تخونينه يا (سميحة) .. تخونينه .. تخونينه .. وإذا ما كان القول يؤلمك ، فالفعل أشنع .

صرخت فى ألم :

– اصمتى .

واصلت فى حِدَّة :

– لن أصمت .. إنك تلوِّثين شرفك وسمعتك ، ولن أسمح لك بذلك ، حتى لو رغبت أنت .

صرخت بها :

– وما شأنك بى ؟

أجابتنى فى مرارة :

– إننى صديقتك يا (سميحة) ، ومن حقك علىَّ أن أمنعك من الخطإ ، وأحُول بينك وبين الخطيئة .

هتفت فى هلع :

– الخطيئة ؟ ! .. أية ألفاظ تستخدمين ؟

قالت فى حِدَّة :

– الحقيقة .

عادونى عنادى ، فصرخت بها فى حَنَق :

– لا شأن لك أنت بالحقيقة .. إنها حياتى أنا ، والحقائق تخصّنى أنا وحدى ، وليس من حقك أن .....

بترت عبارتى بغتة ، ورحت أحدِّق أمامى فى ذهول ، مما دفع (نوال) إلى أن تستدير ، وتحدِّق بدورها فى نفس النقطة ، التى أحدِّق أنا فيها ، قبل أن تهتف فى سعادة عجيبة :

– أستاذ (وحيد) ؟ ! .. تفضل .. أهلاً بك هنا .

شحب وجهى فى شدة ، وهو يصافحها فى شرود : مطتلّعاً إلىَّ ، قبل أن يغمغم :

– كنت مارًّا من هنا و .....

بتر عبارته مرَّة أخرى ، وهو يتطلَّع إلى يدى الخالية من دبلة الزواج ، فأسرعت أخفيها فى راحة يدى الأخرى ، وأنا أغمغم فى عصبية :

– مرحباً بك فى أى وقت .

وقف صامتاً ، يتطلَّع إلى وجهى ، فهتفت (نوال) :

– مرحباً يا أستاذ (وحيد) .. تفضل .

ثم أسرعت تغادر الحجرة ، مستطردة :

– سأحضر مشروباً مثلجاً .

وقفت صامتة ، متوترة ، أحاول الفرار من

نظراته الثابتة المقلقة ، قبل أن أقول فى عصبية :
– ما معنى هذه الزيارة ؟
أجابنى فى هدوء :
– أليس من حقى أن أزور زوجتى فى أى وقت؟
قلت فى غضب :
– كلاً .. ليس من حقك .
قال فى هدوء شديد :
– كيف ؟
صحت فى حنق :
– لا ينبغى أن تباغتنى بالزيارة .. فهذا يبدو كأنك تشك فى سلوكى .
لم يجب بحرف واحد ..
لم تنفرج شفتاه ..
ولقد أقلقنى هذا ..
أقلقنى فى شدة ، حتى أن كل طاقة العناد فى أعماق قد تلاشت ، أو غاصت فى أعماق ، واختفت ، وكنت ..

وفى توتُّر ، قلت :
– لا بأس .. مرحباً بك على أية حال .
ثم أشرت إلى المقعد المقابل لى ، مستطردة فى عصبية :
– يمكنك أن تجلس .
قال فى برود :
– كلاً .. لست أرغب فى مضايقتك ، أو تعطيلك .
لم أجب ، فاستدار فى هدوء ، واتجه نحو باب الحجرة و .....
وفجأة .. دلفت (نوال) إلى المكان ، وهى تجذب إليه (علاء) ، الذى يبتسم ابتسامة واسعة ، وهى تهتف فى لهفة :
– (علاء) .. أحبُّ أن تقابل الأستاذ (وحيد) .
صافحه (علاء) فى حرارة ، وهو يقول مبتسماً :
– مرحباً بك يا أستاذ (وحيد) .
شحب وجهى ، وأنا أراقب ذلك المشهد ، وغاص

قلبي بين ضلوعي ، عندما أضافت (نوال) فى خبث :

– إنه زوج مدام (سميحة) .

اتسعت عينا (عـلاء) ، وامتقع وجهـه ، وهو يحدّق فى وجه (وحيد)، وينقّل بصره إلىّ فى ارتياح ، ثم لم يلبث أن قال فى صوت باكٍ مختنق :

– تشرفنا يا أستاذ (وحيد) .

غمغم (وحيد) فى هدوء :

– فرصة سعيدة يا (علاء) .

رمقنى (علاء) بنظرة أخرى ، حملت كل عتاب الدنيا ولومها ، ثم استدار ، وغادر المكان فى خطوات سريعة ، ورَان على الحجرة صمت قصير ، قبل أن يقول (وحيد) فى هدوء :

– سأنتظرك فى المنزل .

وانصرف فى خطوات رصينة ..

ولم يكد يبتعد عن مرمى السمع ، حتى هتفت فى غضب :

– ماذا فعلت أيتها التعسة ؟

ابتسمت (نوال) فى ارتياح ، وهى تقول :

– لقد أنقذتك يا (سميحة) .

صرخت باكية :

– وما شأنك أنت ؟.. إنك أسخف وأحقر من رأيت .. أغـرُبى عن وجهى .. إننى أكرهك، وأرفض صداقتك إلى الأبد .. إلى الأبد .

أومأت برأسها مستسلمة ، وقالت :

– لن يحزننى ذلك يا (سميحة) ، فيكفينى أننى قد أنقذتك .. أنقذتك من نفسك .

صرخت :

– اغربى عن وجهى .. اغربى .

وكانت آخر مرّة نتحدث فيها ..

وآخر خيانة ..

* * *

١٠ ـ أريد ابنا ..

تخرجت من الكلية ..

لم يكن ذلك أمراً سهلاً ، بسيطاً ، كالفارق بين نهاية الفصل السابق ، وبداية هذا الفصل ..

ولم يستغرق فترة انتقال من هذا إلى ذاك ..

لقد استغرق أربع سنوات كاملة ..

أربع سنوات لم يتغيَّر فيها الكثير بالنسبة لى ، وإن تغيَّر بالنسبة إلى الجميع ..

(علاء) ارتبط بفتاة أخرى ، وخطبها ، وتزوَّجها فور تخرُّجه ، ولقد نشرت المجلات صور حفل زفافهما ، نظراً لمكانة والده فى المجتمع ..

و (كوثر) زميلتى تمت خطبتها لـ (سامح) ، شقيق (نوال) ، التى أرسلت لى دعوة خاصة ؛ لحضور حفل خطبتهما ، إلا أننى تجاهلتها تماماً ..

وعلاقتى بـ (وحيد) سادها فتور عجيب ، منذ موقفه مع (علاء) ..

لم يعد يبتسم فى وجهى ، أو يداعبنى أبداً ..

كل الأمور بيننا كانت تسير على وتيرة واحدة ، جافة ، خالية من المشاعر تقريباً ..

ولكن هذا لم يَعْنِنِى أبداً ..

وجدتها فرصة للابتعاد عنه ، ولإراحة نفسى من صراعى المتواصل ، لإثبات أننى الأكثر تفوُّقاً ..

وازددت اندماجاً وانهماكاً فى نشاطات الكلية ، ومنح هو المزيد من الوقت والاهتمام لمكتبه ، فنشطت أعماله ، وازدهرت أحواله ، وانعكس ذلك على نفقات المنزل ، وعلى نفقاتى الشخصية ، فرحت أحيا كنساء الطبقة الارستقراطية ، وأنفق المال عن سعة ..

ولم أعد أخلع دبلة الزواج فى الكلية ..

لقد صار (وحيد) شخصية معروفة شهيرة ، يرُوق لى أن أفخر بها ..

والعجيب أنه لم يذكر أمر حادثة (علاء) أبداً ..

ولم يعد لزيارتى فى الكلية بعدها مطلقاً ..

وفى يوم تخرُّجى ، أخبرته فى سعادة بنجاحى ،

ورحت أرسم خطط ومشروعات المستقبل ، وهو يستمع إلىّ فى هدوء ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول فى اقتضاب :

– مُبارَك .

ضايقنى بروده، وعزوته – حينذاك – إلى غيرته ، فقلت فى حِدّة :

– فقط .

سألنى فى لهجة بدت لى ساخرة :

– وماذا تريدين أيضاً ؟

قلت فى تحدٍ :

– هدية نجاح .

صمَتَ لحظة ، وهو يتطلّع إلى وجهى فى سكون ، على نحو لم أدرك مغزاه ، وأنا أتطلّع إليه بدورى فى حَيْرة ، قبل أن يقول فى برود :

– كم ؟

قلت فى غضب :

– ليس المهم هو كم .. المهم هو كيف .

عاد يقول بتلك اللهجة ، التى تحمل رائحة السخرية :

– حسناً .. كيف ؟

قلت فى عناد :

– سنقيم حفلاً .

أجابنى فى اقتضاب :

– فليكن .

ولقد أقام الحفل فى نفس الليلة ..

وكان حفلاً أنيقاً طريفاً . حضره الأصدقاء المقرّبون ، والأقارب ..

وفى ذلك الحفل فاجأنى (وحيد) بهدية ثمينة ..

بسوار ماسى فاخر ..

ورُحت أستعرض زوجى وهديتى . وأفخر بهما أمام الجميع ..

وبعد أن هدأت الأمور ، وانصرف معظم الأقارب والأصدقاء ، وبقى والداى . ووالدا (وحيد) ، قال أبى ، وهو جامد الملامح كعادته :

— أظن أنه قد حان الوقت لتقبعى فى بيتك ، وتُولينه بعض اهتمامك .. أليس كذلك ؟

احتقن وجهى فى حَنَق ، وغمغمت فى خفوت :

— أظن أننى سأبحث عن عمل يا أبى .

هتف فى استنكار :

— عمل ؟! ..

ثم التفت إلى زوجى ، صائحاً :

— أتقبل أن تعمل زوجتك ؟

كنت أتوقع أن يرتبك (وحيد) أمامه ، ويتلعثم ، وتتصاعد حُمرة الخجل إلى وجنتيه كالمعتاد ، إلا أننى فوجئت به يقول فى صرامة :

— كل النساء يعملْنَ هذه الأيام يا عماه .

حدَّق أبى فى وجهه بدهشة ، وكأنما لم يتوقع أبداً أن يجادله شخص ما ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى غضب وصرامة ، وهو يهتف :

— يا لكم من رجال !! .. فى زماننا لم نكن .....

قاطعه (وحيد) مرَّة أخرى :

— كل زمان له قواعده يا عماه .

احتقن وجه أبى ، وراح ينقـّل بصره بين الجميع فى حَنَق ، ثم لم يلبث أن هبَّ واقفاً ، وهو يقول لأمى فى حِدَّة :

— هيَّا .. لقد تأخر الوقت ، ومن الأفضل أن ننصرف .

رَان الصمت تماماً ، بعد انصراف أبى بعدة دقائق ثم قال (وحيد) فى توتُّر :

— إننى فى الواقع أضيق بعمل زوجتى .. ولكننى أكره أن أفرض عليها ذلك .

ابتسم والده ، وهو يقول فى هدوء :

— هذه قواعد المنطق يا ولدى .

عاد الصمت يسود المكان ، فنهضت قائلة :

— ما رأيكم فى عشاء خفيف ؟

قال (وحيد) فى هدوء :

— سيكون ذلك ظريفاً .

ذهبت إلى المطبخ ، لإعداد العشاء ، ولحقت بى أم (وحيد) ، وهى تغمغم فى حنان :

— سأعاونك يا بنيتى .

وفى المطبخ ، وبينما نحن نعد طعام العشاء ، سألتنى الأم فى خفوت :

— أخبرينى يا (سميحة) ، ألا تنتابك مشاعر الأمومة بعض الوقت .

أدركت مغزى سؤالها ، وأحنقنى أنها قد ألقته ، وبدا لى أنه ليس من شأنها أن تفعل ، فعقدت حاجبى ، وقلت فى غضب :

— كل أنثى تملك فى أعماقها غريزة الأمومة ، وتسعى لتحقيقها .

قالت فى لهفة :

— لم لا تحاولين إقناع (وحيد) بالإنجاب إذن ؟

أدهشتنى عبارتها فى شدة ، فرحت أحدّق فى وجهها ، وأنا أهتف :

— أقنعه ؟!.. أنا ؟!

ارتبكت الأم فى شدة ، وتخضّب وجهها بالحمرة ، وغمغمت فى تلعثم :

— معذرة يا بنيتى .. أعلم أنه ليس من حقى أن أذكر مثل هذا الأمر ، أو أتحدّث عنه ، ولكنك ينبغى أن تقدّرى موقفى .. إن (وحيد) ابننا الوحيد ، ووالده وأنا نحلم برؤية أحفادنا ، ولكنه يصرّ على عدم الإنجاب فى الوقت الحالى ، ونحن نجهل سرّ إصراره هذا ، ولقد منعنا فى حزم ، من التحدث إليك فى هذا الشأن ، وأخشى أن يكون فى ذلك غبن لك ، ولمشاعر أمومتك الغريزية و .....

لم تتم عبارتها ، وتلعثمت فى شدة ، وهى تحدّق فى وجهى بدورها ، قبل أن تشيح بعينيها عنى ، وتغمغم فى ارتباك :

— معذرة يا بنيتى .. إننى لم أقصد أن .....

لم أسمع باقى عبارتها ، فقد كانت دهشتى بالغة ، حتى أننى لم أكد أودّع والدَىْ (وحيد) ، عند

انصرافهما ، فى نهـاية السهرة ، حتى التفتت إلى (وحيد) ، وقلت فى حِدَّة :

— لماذا أخبرت والدتك أننا نرفض الإنجاب ؟

تطلَّـع إلىَّ فى دهشة ، قبل أن يعقد حاجبيـه ، ويقول فى برود :

— وكيف كنت تريدين منِّى أن أفسر لها الأمر إذن ؟.. أكنت تفضلين أن أقول لها إنك لا تنجبين .

صحت فى غضب :

— من قال هذا ؟

قال فى حزم :

— ومن ينفيه ؟

عقـدت ساعدى أمام صـدرى ، وأنا أقـول فى عصبية :

— أنا أنثى كاملة ، سليمة ، وقادرة على الإنجاب .

قال فى برود :

— من يُثبت ؟

صرخت فى عصبية بالغة :

— هل تحاول استفزازى ؟

هزَّ رأسه نفياً فى بطء ، وهو يقول :

— كلاَّ يا (سميحة) .. لست أحاول ذلك .. صدِّقينى .. لست أحاوله .

ثم استطرد فى حزم مفاجئ :

— ولكننى أبحث عن حقِّى .

هتفت فى استنكار :

— أى حقٍّ هذا ؟

أجابنى فى حِدَّة ، وهو يشير إلى صدره فى قوة :

— حقى فى أن أكون أباً .. فى أن يكون لى ولد .. ابن أو ابنة .

قلَّبت شفتى فى امتعاض ، وأنا أهتف :

— منك أنت ؟!

صاح فى غضب :

— نعم .. منِّى أنا يا (سميحة) .. من زوجك .

صرخت فى حدة :

– زوجى ؟!.. أتظن نفسك صاحب حقّ ، لهذه الصفة فحسب .

قال فى غضب :

– أية صفة تريدين إذن ؟

صرخت فى تعالٍ :

– صفة التحضر .. صفة الآدمية .

حدّق فى وجهى بدهشة وألم ، وهو يقول فى مرارة :

– وهل أفتقر إلى الصفتين يا (سميحة) ؟

صحت فى عجرفة :

– بالطبع .

ثم قلّبت شفتى فى ازدراء ، وأنا أستطرد :

– بأية صفة آدمية ومتحضرة تعاملتَ معى ؟.. لقد تقدمت لخطبتى ، دون أن تسألنى رأيى ، أو حتى تهتم به ، وأتممتَ كل الإجراءات مع والدى وحده .. تماماً مثلما كان يفعل الهمج .. إنك مجرّد رجل .. رجل يهوى السيطرة والغطرسة ، رجل يتصوّر أنه صاحب

كل الحقوق ، لمجرّد أن الله (سبحانه وتعالى) قد منحه صفة تشريحية ، لا فضل شخصيًّا له فيها .. مجرد رجل مغرور أنانى ، يبحث عمن يفرض عليه سيطرته ، ويثبت به رجولته و ......

قاطعنى فى غضب ، ووجهُه محتقن فى شدة :

– كفى .. كفى يا (سميحة) .

وتقاطرت المرارة فى حروف كلمته ، وهو يستطرد :

– كفى !!

ثم استعاد صوته حزمه ، وهو يردف :

– لست أريد ابناً منك .. منك أنت بالذات .

واندفع إلى حجرتنا ، وأغلقَ بابها فى وجهى بشدة ..

وكانت بداية النهاية ..

* * *

١١ ـ لا فائدة ..

على الرغم من خلافى الشديد مع (وحيد) ، إلا أننى شعرت بأحقيته فى إنجاب ولد ، بعد أن احتمل أربع سنوات دون إنجاب ، ورأيت أنه لا بأس من التنازل عن ذلك ؛ لإثبات كمال أنوثتى ..

ولأوّل مرّة منذ زواجنا ، امتنعت عن تناول أقراص منع الحمل ، وانتظرت ثلاثة أشهر ليحدث الحمل ، دون جدوى ..

ومع مرور الوقت ، انتابنى قلق حقيقى ..

لماذا لا يحدث الحمل ؟..

لماذا تأخر هكذا ؟..

أقلقنى ذلك كثيراً ، خاصة وأن علاقة (وحيد) بى قد فترت كثيراً منذ مشاجرتنا ليلة تخرجى ..

ولكن (وحيد) هذا شخصية عجيبة ..

إنه ـ وعلى الرغم من خلافنا ـ لم يقصر يوماً فى واجباته الزوجية نحوى ، فهو ينفق على المنزل ، وعلىَّ

فى سخاء ، ولا يتوانى عن منحى كل ما أرغب فيه ، ويتذكّر كل تواريخ مناسباتنا فى دقة ، ويقدّم لى الهدايا الثمينة ..

وكل هذا جعلنى أشعر بضرورة منحه ذلك الابن ، الذى يأمله ..

وعندما طال الوقت ، رأيت أنه من الأفضل أن أستشير طبيباً ..

ولم يكن ذلك سهلاً ..

لقد استمع إلىَّ الطبيب فى اهتمام ، وسألنى فى دقة عن كل التفاصيل ، وعن كل ما تناولته من أدوية ، وكل ما أصابنى من أمراض ، ثم طلب منّى إجراء عدة تحليلات كثيفة ومعقدة ..

ثم كانت الصدمة الكبرى ..

لقد قرأ الطبيب كل التحاليل ، وراجعها فى اهتمام بالغ ، ثم هزَّ رأسه فى أسف ، وخلع منظاره ، وهو يتطلّع إلى وجهى ، الذى شحب كثيراً ، وأنا أسأله فى قلق وتوتّر :

ـ ماذا هناك ؟

سألنى فى صوت حزين :

— ألديك أطفال ؟

أجبته فى خوف :

— كلاَّ .. لماذا تسأل ؟

عاد يهز رأسه فى أسف ، قبل أن يقول :

— معذرة يا بنيتى .. لن يقدَّر لك الإنجاب أبداً .

امتقع وجهى فى هلع ، وانهرت فوق مقعدى ، وأنا أهتف فى ارتياع :

— ماذا ؟!

قال فى إشفاق :

— تلك التحاليلات تؤكِّد أنك كنت قادرة على الإنجاب فيما مضى ، إلا أنك قد أسرفت فى تناول أقراص منع الحمل، قبل أن يحدث أى حمل ، فتسبَّب هذا فى حدوث خلل هرمونى لك ، أدَّى مع مرور الوقت إلى تليف فى المبيضين ، ولم يعد هناك أمل فى الإنجاب مرَّة أخرى .

كدت أفقد الوعى أمامه ، وأنا أتمتم فى شحوب :

— مطلقاً ؟!

أجابنى فى أسف :

— مطلقاً .

ثم قلَّب كفَّيه فى تعاطف ، مستطرداً :

— لست أدرى لماذا تلجأ فتاة مثلك إلى منع الإنجاب ، فى بداية زواجها ؟.. من الضرورى أن يحدث الحمل مرَّة واحدة على الأقل ، قبل أن تبدأ أية فتاة فى تناول أقراص منع الحمل .. يا إلهى !!.. لماذا ترفضون الأمومة فى هذا العصر ؟!

لم أكن أحتمل كلماته ..

كنت أبكى فى حرارة ..

أبكى من أعمق أعماق قلبى ..

لقد طعنتنى تلك النتيجة فى أنوثتى ..

طعنتنى طعنه نجلاء ..

إننى لم أعد أنثى كاملة ..

لم أعد كذلك ..

وغادرت عيادة الطبيب ، وأنا أبكى وأبكى ..

وفى طريق عودتى إلى المنزل ، رُحت أتحسر على موقفى ، ثم لم ألبث أن شعرت بالمرارة والغضب ، لأننى قد فقدت نقطة قوة أمام (وحيد) ..

ولكن لا ..

لن يعلم (وحيد) أبداً ، أننى غير قادرة على الإنجاب ..

فليظن دوماً أننى غير موافقة عليه ..

أننى أنا الرافضة له ..

لن أفقد قوتى أمامه أبداً ..

لن أحنى رأسى له ..

وفجأة .. وبينما أنا مستغرقة فى مرارتى ، سمعت صوتاً من خلفى ، يهتف فى لهفة وفرح :

– (سميحة حسين) !.. يا لها من مصادفة جميلة !!

التفت إلى مصدر الصوت ، وهتفت فى دهشة :

– (نوال) ؟!

أسرعت تحتضننى فى لهفة وسعادة ، وهى تهتف :

– كيف حالك يا (سميحة) ؟.. إننى لم أرك منذ ثلاثة أشهر .

صافحتها فى توتّر ، قائلة :

– مرحباً يا (نوال) .. كيف حالك ؟

هتفت فى سعادة ، وهى تجذب شابًا وسيماً فى سعادة :

– يسعدنى أن أقدم لك (سمير) .. خطيبى .

صافحت خطيبها فى شرود ، وأنا أغمغم :

– تشرّفنا .

تابعت (نوال) ، وهى تشير إلىّ فى لهفة :

– مدام (سميحة) هى زوجة (وحيد صبحى) ، المحاسب القانونى الشهير .

هتف (سمير) فى دهشة وإكبار :

– زوجته ؟!.. يالها من مصادفة سعيدة !

ثم عاد يصافحنى فى حرارة أدهشتنى ، وهو يهتف فى حماس :

– تهنئاتى ياسيدتى .. زوجك رجل رائع .. إنه مثلنا الأعلى ، منذ كنا فى كلية التجارة .. إنه أفضل محاسب فى (مصر) كلها .

حدّقت فى وجهه بدهشة ، وأنا أغمغم :

— (وحيد) ؟!

هتف فى حماس :

— بالطبع .. إنه أفضل ، وأنزه محاسب ، فى الشرق الأوسط كله .. إنه رجل شريف ، يضربون به الأمثال ، فى عالم المال ، ورجال الأعمال .. إن موافقته على مراجعة حسابات شركة ما ، تعنى أنها فوق مستوى الشبهات .. صدّقينى يا سيدتى .. إنه رجل رائع .

انتابنى زهو شديد ، وأنا أسمع كل هذا المدح والتقريظ لزوجى ، وارتسمت على شفتى ابتسامة واسعة ، حتى أننى قد نسيت أمر الطبيب تماماً ، ورُحت أقول فى فخر :

— يسعدنى أن هذا رأيك .

هتف منفعلاً :

— بل هو رأى الجميع يا سيدتى .

ثم عاد يصافحنى ، مستطرداً :

— تهنئاتى .

انتفخت أوْداجى فخراً . وصافحت (نوال) فى سعادة ، وأنا أقول :

— كم تسعدنى مقابلتك يا (نوال) .

قالت فى فرح :

— إنها لا تفُوق سعادتى برؤياك يا (سميحة) .

ثم انحنت تقبلنى ، مستطردة :

— ولا تنسى أنك زوجة رجل رائع .

قلت فى سعادة :

— لن أنسى .

صافحتهما ، وانصرفت وأنا أرقص طرباً ، على الرغم من صدمتى بعدم قدرتى على الإنجاب منذ ساعات ..

وفجأة تذكّرت ..

تذكرت مأساة أنوثتى ..

وتلاشت بهجتى ..

تلاشى فخرى وزهوى ..

وعادت الدموع تترقرق فى عينىَّ ..

ما فائـدة زوج رائع ، لزوجـة عاجـزة عن الإنجاب ؟..

ما فائدة حياتها معه ؟..

لقد فزت بالشهادة ، والزوج المناسب ..

وخسرت هبة الله (سبحانه وتعالى) ..

خسرت أمومتى ..

ومرّة أخرى رحت أبكى ..

وفجأة .. وبلا مقدمات ، تحجّرت الدموع فى عينىّ ، واختلج قلبى فى قوة وعنف ..

لقد رأيت أمامى سيارة (وحيد) ..

وكان هو داخلها ..

ولكنه لم ينتبه إلىّ ..

لقد كان يتحدّث فى اهتمام شديد إلى فتاة ..

بل إلى حسناء ..

وكان يتحدّث إليها بودّ واضح ..

ودّ محبّ عاشق ..

* * *

١٢ - المواجهـة ..

خامرتنى رغبـة قوية ، فى أن أنقضّ على سيارة (وحيد) ، وأنتزع منها تلك الفاجرة ، التى تجلس معه ..

إلا أننى كبحت هذه الرغبة ..

كبحتها ؛ لأنها ستظهرنى بمظهر الزوجة الغيورة ..

وستضعنى فى الموقف الأضعف ..

لذا فقد عدت إلى منزلنا ، وجلست أنتظره ، وأنا أتميّز غيظاً ..

والعجيب أننى ، فى غمـرة غضبى وحنَق ، قـد نسيت تماماً مشكلتى ومأساتى ..

نسيت أننى لم أعد قادرة على الإنجاب ..

يا للعجب !!..

المفروض ، طبقاً لكل نظريات علم النفس ، أنه ما من غريزة أخرى ، تفُوق غريزة الأمومة فى قلب الأنثى ..

ولكننى فى تلك اللحظة كنت نَهْباً لغريزة أخرى ..

غريزة التملك ..
لم أكن أحبَّ زوجى حقًّا ..
ولكننى أمتلكه ..
إنه زوجى أنا ..
رجلى أنا ..
وحدى أملك كل الحق فيه ..
وحدى صاحبة جسده وروحه ..
ولقد ملأت تلك الرغبة أعماق ، وتلاشت إلى جوارها كل الغرائز الأخرى ..
وكلما مضى الوقت ، دون أن يعود (وحيد) ، تضاعف الغضب والحَنَق فى أعماق ، حتى سمعت صوت مفتاحه ، وهو يدور فى باب الشقة ، فوقفت أنتظره فى رَدْهتها ، مقطَّبة الحاجبين ، محتقنة الوجه .. ولم يكد هو يفتح الباب ، حتى تطلع إلىَّ فى دهشة حقيقية ، وقال :
– عجباً ! ! ؟. ماذا بك ؟
هتفت فى غضب :
– بل ماذا بك أنت ؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة شبه ساخرة ، وهو يقول :
– ماذا بى ؟
ثم أغلق الباب خلفه فى بساطة ، قبل أن يستطرد :
– إننى كما أنا يا (سميحة) . لم تطرأ علىَّ أية تغيرات ، فيما عدا فَوْدين وخطَّهما الشيب قبل الأوان .
صحت فى غضب :
– وماذا عن تلك الحقيرة ؟
عقد حاجبيه فى دهشة واستنكار . وهو يقول :
– أية حقيرة ؟
صحت فى ثورة :
– تلك الداعرة ، التى كانت تجلس إلى جوارك . فى سيارتك ، والتى كنت تتحدث معها فى عشق و .....
قاطعنى فى غضب :
– مهلاً يا (سميحة) .. إنك تتحدثين عن فتاة محترمة .
صرخت فى هياج :

— محترمة ؟!.. ما من فتاة محترمة تقبل أن تجلس مع رجل متزوّج فى سيارته ، وتستمع إلى همساته الدافئة ، على النحو الذى رأيتكما عليه .

قال فى حِدّة :

— (سميحة) .. هــذه الفتاة هى (ميرفت) .. سكرتيرتى .

صرخت محتدّة :

— أتريد منّى أن أصدّق هذا الهرَاء ؟

قال غاضباً :

— لو أنك تنازلت ، وزرت مكتبى مرّة واحدة منذ زواجنا ، لعلمت بكل بساطة أنها سكرتيرتى ..

أدهشنى أنه على حقّ ..

إننى لم أحاول أبداً زيارة مكتبه ..

لم أفعل مرّة واحدة ، طيلة سنوات زواجنا ..

ولكن هذا لم يبد لى عجيباً ..

وبكل الحِدّة ، هتفت :

— هذا لا يهم ، فكونها سكرتيرتك من عدمه ،

لن يغيّر من الأمر شيئاً ، فلقد كنت تتحدّث معها فى هيام شديد .

عقد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

— وما شأنك أنت بذلك ؟

صرخت فى استهجان :

— ما شأنى ؟!.. إننى زوجتك .

هتف فى حِدّة :

— زوجتى ؟!.. ألم تتذكرى ذلك إلا الآن ؟

صحت ، محاولة منعه من الاستطراد :

— إننى زوجتك ، شئت أم أبيت .

صرخ فجأة ، على نحو جعلنى أرتجف خوفاً :

— خطأ .

تلعثمت على الرغم منّى ، وأنا أغمغم :

— ماذا أصابك ؟

صرخ محنقاً :

— أصابنى ؟!.. لقد عقدنا قراننا منذ ما يزيد علَى أربع سنوات ، ولكنك لم تكونى زوجتى يوماً ..

الزواج لا يعنى علاقة جسدية فحسب ، إنه اندماج فى المشاعر والأحاسيس .. إنه حياة .

بدا لى أنه ينتزع البساط من تحت قدمىَّ ، فأسرعت أقول فى حِدَّة :

— لا تحاول تغيير الموضوع .. إننا نتحدَّث عن تلك الداعرة التى .....

صرخ فى غضب هادر :

— كفى .

صحت فى استنكار :

— (وحيد) .. ماذا تفعل ؟

صرخ فى وجهى ثائراً :

— هذه الفتاة ، التى تتحدثين عنها بهذه الصفاقة ، هى زوجتى ..

تفجَّرت الكلمة فى أذنىَّ كالقنبلة ..

ودوَّت فى قلبى ..

وفى عقلى ..

واشتعلت النيران فى أعماقى ..

خُيِّل إلى أننى لم أسمع الكلمة جيداً ..

حتماً لم أحسن سماعها ..

من المستحيل أن يكون قد تزوَّج ..

مستحيل ..

مستحيل ..

مستحيل ..

وبكل ما يملأ نفسى من ذهول ، رحت أحدِّق فى وجهه ، قبل أن أهتف :

— زوجتك ؟

صاح فى غضب وحزم :

— نعم .. زوجتى .. اعتباراً من اليوم .

تفجَّر غضب هائل فى أعماقى ، وصرخت فى ثورة :

— أيها الحقير .. كيف تجرؤ ....؟

قاطعنى فى ثورة ، وبغضب تجمَّدت له الدماء فى عروقى :

— كفى .. إننى لم أعد أحتمل .

وقبل أن أنبس ببنت شفة ، استطرد فى ثورة :

– إنك زوجة فاشلة ، متغطرسة ، ومعقدة ..
لقد أدركت ، منذ بدأ تعاملي مع والدك ، أنه السبب في عقدتك .. سيطرته الشديدة على أمك ، جعلتك تسعين جاهدة للسيطرة على أي رجل .. ولقد كان من السهل عليَّ أن أمنعك من ذلك ، ولكنني اخترت الطريق الأكثر صعوبة .. قرَّرت أن أحتمل ، حتى أحلَّ عقدتك .

انعقد حاجباه على نحو مخيف ، وهو يستطرد غاضباً :

– ولكنني فشلت .

زفر في عمق شديد ، قبل أن يستطرد في عصبية :

– لقد منحتك كل ما يمكن أن يمنحه زوج لزوجته .. واحتملت كل غطرستك المصطنعة ، وسخافاتك ، وكل عيوبك .. احتملت حتى أن تحرميني من ابن أو ابنة .. احتملت ثورتك المستمرَّة ، وعصبيتك الزائدة ، على الرغم من كل ما يسببه لي ذلك من آلام .. لقد حاولت حتى أن أحمل عنك كل الأعباء ،

فلم أعترض على مواصلتك التعليم ، وتظاهرت أمام الجميع بأنني أنا الذي يرفض الإنجاب ، حتى لا تضع تساؤلاتهم مزيداً من الأعباء على كاهلك .

وبرقت عيناه في غضب شديد ، قبل أن يواصل :

– ثم لم أعد أحتمل .

انكمشت في أعماق أمامه ..

كان محقًّا في كل جملة نطقها ..

في كل كلمة ..

في كل حرف ..

ولكنني رفضت أن أسمح له بهزيمتي ..

واندفعت أقول في حِدَّة :

– فليكن .. إنني لم أطالبك بالتضحية من أجلي .

قال في غضب :

– هذا صحيح ، ولكنني تصوَّرت أنك تستحقين ذلك .

قلت في حَنَق :

– هذا شأنك ، ولكنه لا يبرِّر خيانتك .

ابتسم فى سخرية مريرة ، وهو يقول :

— خيانتى أنا ؟!

شحب وجهى ، وأنا أقول فى عصبية :

— بالطبع .. خيانتك أنت .

هتف فى سخرية :

— وماذا عن (علاء) ؟

انكمشت فى أعماق فى شدة أكثر ، وأنا أغمغم :

— ماذا عنه ؟.. إنه مجرّد زميل دراسة و .....

قاطعنى فى سخرية وألم :

— مُهرَاء .. أتذكرين ذلك اليوم ، التى استيقظت فيه ، فوجدتنى متجهماً ، حزيناً .. لقد عدت قبلها من الكلية ، دون دبلة الزواج ، ولقد أحزننى ذلك فى الواقع ، وجعلنى أشك فى أمرك ، وأتساءل عن السرّ ، ثم أقنعت نفسى بأن هذا يعود فقط إلى محاولة منـك للتظاهر بأنك مازلت فتاة صغيرة ، حتى جاء الصباح ..

صمت لحظة ، ازدرد خلالها لعابه فى ألم ، وكأنما يبتلع ذكرى مؤلمة ، يغص بها حلقه ، قبل أن يستطرد :

— لقد استيقظت فى الصباح منتشياً ، سـعيداً ، وانحنيت على وجنتك أقبلها ، وهمست فى أذنك بكلمة حبّ ، ولكنك مزّقتنى بكلمة واحدة .

تقاطرت المرارة مع كلماته ، وهو يستطرد فى ألم :

— لقد خاطبتنى باسمه هو .

وجفت الدماء فى عروقى ، وهو يردف :

— باسم (علاء) ..

* * *

١٣ ـ الهزيمة ..

كم يُدهشنى ، وأنا أسترجع تلك الأحداث ، أننى لم أسقط فاقدة الوعى ، عندما نطق (وحيد) باسم (علاء) ..

كم يدهشنى أننى ظللت واقفة على قدمى ..

لقد كشف خيانتى له ، منذ ثلاث سنوات .

كان هذا سرّ فتور علاقته بى إذن ..

كان هذا سرّ تباعد مشاعره نحوى ..

وبكل الخزى ، والمرارة ، والألم ، والعار ، وقفت أستمع إليه مستسلمة ، مدحورة ، وهو يستطرد :

ـ لا يمكنك تصوُّر قوة صدمتى .. لقد كاد قلبى يتوقَّف ، وزوجتى تخاطبنى باسم شخص آخر ، بعد ليلة حب .. كان هذا أشبه بطعنة خنجر ، غاصت فى قلب يختلج سعادة .

صمت ليزدرد لعابه فى مرارة ، قبل أن يردف :

ـ وذهبت إلى مكتبى أترنح ، من فرط الألم

والمرارة ، وجلست هناك عاجزاً عن أداء عملى .. عن إتيان أية خطوة ناجحة .. ولكن ....

برقت عيناه ببريق عجيب ، وهو يواصل فى حزم مفاجئ :

ـ كان علىَّ أن أواجه الموقف .. إنه أسلوبى فى التغلُّب على كل مخاوفى ، وتحويل الهزائم إلى انتصارات .. أن أواجهها .. لذا فقد ذهبت إليك فى الكلية ، وفاجأتك بزيارتى ، وتأكَّدت من أنك لا ترتدين دبلة الزواج هناك .. ثم جاء هو ..

صمت ..

وطال صمته هذه المرَّة ..

بدا وكأنه يستعد لوصف أسوإ موقف مرَّ به فى حياته ..

كان من الواضح أن ما سيقوله ، فى اللحظات التالية ، يؤلمه أشد الإيلام ..

ولكنه قاله ..

كانت كلماته تقطر بالألم والمرارة ، وهو يقول :

— وعنـدما رأيته ، حاولت أن أعـلم ما الذى جـذبك إليه .. ما الذى جعـله يملأ عقلك وقلبك .. بدلاً من زوجك .. ولكننى عجزت ، فلقد كان لقائى به أقصر من أن يساعدنى على فهمه ، ولكننى أدركت يومها نقطتين ، كانتا أهم عندى من معرفته .. أدركت أن (نوال) هى أخلص صديقاتك على الإطلاق ، وأنها قد تعمّدت إحضاره إلى الحجرة ، ليعلم أنك زوجة ، وليبتعد عن طريقك .. فهمت أنها كانت تحاول إنقاذك من نفسك .. وأدركت أيضاً أن هذا قد صدم (علاء) ، وأنه سيبعده عن طريقك تمـاماً .. أدركت هذا ، ولكنه لم يكف لتستعيدين مكانتك فى قلبى .. لقد كرهت حبى لك ، منذ ذلك اليوم ، وشعرت أنه يورثنى كل الضعف والمهانة ، ورحت أعمل جاهداً لوأد حبّك فى قلبى ، والقضاء عليـه .. ولكننى حرصت فى الوقت ذاته على ألا أتراجع عن وعد قطعته لك ، أو كلمة قلتها ..

بكيت فى ألم ومرارة ، وأنا أغمغم :

— لم تنشأ أية علاقة بينى وبين (علاء) .. أقسم لك.

مطّ شفتيه ، وهو يقول فى حزن :

— تقصدين أنه لم يكن هناك وقت كافٍ لذلك .. هذا ما قد أصدّقه .

ثم صمت طويلاً ، وكأنه يفكّر فى أمر ما ، قبل أن يستطرد :

— أتعلمين يا (سميحة) .. لقد اتهمتنى بأننى غير آدمى ، أو متحضّر ؛ لأننى تزوّجتك دون معرفة رأيك ، ولكن العجيب فى هذا أنك أنت دفعتنى إلى ذلك .

هتفت فى دهشة :

— أنا ؟!

أومأ برأسه إيجاباً ، وهو يغمغم :

— نعم يا (سميحة) .. أنت .

وملأ صدره بتنهيدة قوية ، قبل أن يستطرد :

— لقد رأيتك عدة مرّات ، وأنا فى طريقى إلى مكتبى .. رأيتك تتجهين إلى مدرستك .. وكنت — والحق يقال — مثالاً للالتزام والأدب ، وحسن

الخلق، مما جذبنى إليك فى شدة ، بل أستطيع أن أؤكّد أننى قد أحببتك دون أن نتبادل كلمة واحدة .. ولقد حاولت أن أتقرّب منك ، وأن أفاتحك فى أمر رغبتى الزواج منك ، ولكنك كنت تواجهين محاولاتى فى صرامة وحزم ، دون حتى أن تلتفتى إلىّ ، إلا بالنذر اليسير ، وبلمحة سريعة ، ونظرة صارمة ..

يا إلهى ! !..

إنه صادق فى قوله ..

لهذا بدا لى مألوفاً ، يوم حضر لطلب يدى ..

لهذا خُيِّل إلىّ أننى أعرفه ..

لقد حاول حقًّا أن يحادثنى عدة مرّات ..

وقبل أن أستطرد فى أفكارى ، كان هو يتابع فى حزن :

ـ ولقد أعجبنى هذا حقًّا يا (سميحة) ، ورأيته تأكيداً لمدى تهذيبك ، وحسن تربيتك .. ورأيت أن فتاة مثلك لايصلح التقدم إليها ، سوى بوسيلة واحدة .. الخطبة الرسمية .. وهكذا فاتحت والدك فى الأمر ،

وجئت مع والدىّ لرؤيتك وطلب يدك .. ولهذا السبب قرأت مع والدك الفاتحة ، دون أن أسألك رأيك .. أنت منحتنى الشعور بأن هذا أسلوبك ، ومقابلتى لوالدك أكدت لى هذا فى أعماقى .. ولكننى كنت مخطئاً ..

تنهد مرّة أخرى فى عمق ، وأضاف :

ـ لقد احتملت منك الكثير يا (سميحة) ، وكان من الممكن أن أحتمل المزيد ، لولا ثورتك ، عندما طالبتك بحقى فى أن يكون لى ابن منك .

تصاعدت حِدّة كلماته ، كما لو أن ذكر هذا الأمر يثيره ، وهو يستطرد :

ـ إن ما أعلمه ، من خلال خبراتى ، يؤكّد لى أن الزوجة التى تحبّ زوجها تتمنى أن تنجب منه ابناً ، يربط حبهما ، ويقوى علاقتهما .. أما أنت ، فقد كنت تكرهيننى حتى النخاع .. لست أدرى لماذا؟! ولكن هذه كانت حقًّا مشاعرك ، التى خاطبتنى بها فى ذلك اليوم .

ذكرتنى كلماته بمأساتى ، فرحت أبكى فى حرارة وألم ، وأنا أغمغم :

– لن أكون أمًّا لابنك يا (وحيد) ، ولا لابن أى رجل آخر .

ويبدو أنه لم يدرك ما أعنيه ، فقد لوَّح بكفه فى حِدَّة ، قائلاً :

– وأنا لم أعد أرغب فى أن أكون أباً لابنك .. لم أعد أرغب حتى فى أن أكون زوجاً لك .

انهرت أمامه تماماً ، وأنا أقول :

– لم يفت كل شيء بعد يا (وحيد) .. لو أنك تحبنى حقًّا ، فيمكننا أن نبدأ من جديد ، وأن .....

قاطعنى فى صرامة حزينة :

– سبق السيف العزل يا (سميحة) .

هبط قلبى بين قدمىَّ لكلمته ، وهتفت فى ارتياع :

– ماذا تعنى ؟

خفض عينيه ، وهو يقول فى ألم :

– لقد تزوَّجت (ميرفت) .

هتفت متضرعة :

– اتركها يا (وحيد) .. اتركها من أجلى .

رفع عينيه إلىَّ لحظة ، ثم عاد يخفضهما ، وهو يلقى فى وجهى تلك الكلمة ، التى مزَّقتنى ، وما زالت تمزِّقنى حتى الآن :

– لقد طلقتك هذا الصباح يا (سميحة) .. أنت طالق .

اتسعت عيناى فى هَلَع ورعب ، وعجزت ساقاى عن حملى ، فتهاويت فوق مقعدى ، ورأيته يغادر المنزل فى صمت وهدوء ..

ويغادر حياتى ..

إنه لم يعد (وحيد) الذى أعرفه ..

لم يعد زوجى ..

* * *



١٤ ـ شتاء الحزن ..

لم يكن طلاق من (وحيد) هو ذروة مأساتى ..

المأساة الحقيقية هى أننى قد اضطررت للعودة إلى العيش مع أبى وأمى ..

عدت مدحورة مهزومة ..

عدت مطلّقة ..

وتضاعفت غطرسة أبى وقسوته ..

وتضاعفت خشونته وحِدّته ..

صار لى أشبه بسجّان مخيف ، على الرغم من تجاوزه الستين من عمره ..

وصار علىّ أن استسلم لعذابى تماماً ..

كنت أدفع الثمن ..

ثمن عقدة ، صنعها أبى فى أعماق ..

وثمن رفضى لأعظم رجل عرفته فى حياتى ..

لزوجى ..

يا إلهى !!.. كم كنت أنانية جاحدة ..

لقد منحنى الله (سبحانه وتعالى) زوجاً محبًّا ، عطوفاً ، شابًّا ، ناجحاً ، ولكننى أبيت أن أمنحه من نفسى شيئاً ..

حرمته حبى وحنانى ..

حرمته أنوثتى ..

وحرمت نفسى معه أمومتى ..

كل هذا لأننى حاولت أن أنتقم من أبى فى صورته ..

حاولت أن أجعل منه كبش الفداء ، لكل حقد حياتى ..

والآن أنا لا أحب سواه ..

إننى أعشقه ..

أذوب فى هواه ..

وكم قضيت الليل أبكى ، وأنا أدعو الله أن يعيده إلىّ ..

لو عاد ، فسأقضى عمرى خادمة تحت قدميه ..

سأفنى حياتى فى رعايته ..

سأمنحه كل حنانى وحبى ..

ولكن للأسف ..

لن أمنحه ابناً ..

(ميرفت) منحته إيَّاه ..

لقد أبلغتنى (نوال) أمس ، أنها قد أنجبت له ابناً جميلاً ، يجمع ما بين جمالها ووسامته ..

وهو يستحق ..

إنه رجل رائع بحقّ ، وما من شك فى أنه سيكون أباً أروع ..

ولكن ما مصيرى أنا ؟..

ما ذنبى ؟! ..

* * *

لقد قصصت عليكم قصتى كلها ، ورويت لكم مأساتى ، فهل لكم أن تشاركونى فى إصدار الحكم على نفسى ؟..

لا تكونوا قساة ..

اقرءوا القصة مرَّة أخرى ..

أقرءوا التفاصيل .. كل التفاصيل ..

وبعدها أجيبونى بالله عليكم

أأنا مجرمة أم ضحيَّة ؟..

مجرمة أم ضحية ؟..

أجيبونى قبل أن أجَن

وأعيدوه إلىَّ ..

أعيدوا روجى ..

* * *

(تمت بحمد الله)



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف

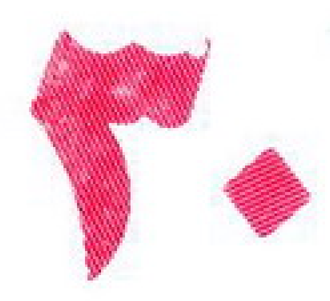


د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

زوجي

عانت (سميحة) طيلة حياتها من صلف أبيها وقسوته على أمها، ثم تزوَّجت من (وحيد)، وقرَّرت أن تنتقم منه، كصورة من والدها، أيحقق لها ذلك السعادة، أم الشقاء؟!.. إنها مأساتها.. مأساة زوجة حائرة..



الثمن في مصر ـــ ٩ ــ

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم